الإسلام والحضارة الغربية

الدكتور محمد محمد حسين

دار الفرقان

الفصل الثالث

الأفغاني ومحمد عبده

الاهتمام بالأفغاني ومحمد عبده يستند إلى اعتبارين: أولهما هو أن الصورة الشائعة المعروفة عنهما بين الناس تخالف حقيقتيهما. وهذه الصورة الشائعة تستمد وجودها وقوّتها من الدعاية الدائبة التي لا تَفْتُر، والتي تسهر عليها قوى ومؤسسات قادرة ذات نفوذ. ولذلك كان الكشف عن حقيقتيهما محتاجاً إلى مجهود كبير، وإلى مزيد من الدأب يقابل دأبَ الدعاية المبذولة في تدعيم مكانيهما. وثاني هذين الاعتبارين هو أن جلاء حقيقة الرجلين يتبعه جلاء حقيقة كثير من الأوهام التي تأصلت في نفوس الناس تبعاً لاستقرار شهرتيهما فيها، فكشف الستر عنهما هو في الوقت نفسه كشف للستر عن أباطيل كثيرة ترتبط بهما، وتستمد قوّتها وبريقها الخدّاع من شهرتيهما ومن ارتباطها بهما.

أول ما يريب الباحث في أمر الأفغاني تعميتُه أصلَه ونسبه، فقد زعم أنه أفغاني سُنّي، ثم أثبت البحث الحديث بأدّلة لا تقبل الشك أنه كان إيرانياً شيعياً، وزعم أنه شريف النسب، حُسَينيُّ الجدّ، وهو زعْم لم يقم عليه دليل، والذي يكذب على الناس في بَلَده خليق أن لا يَصدُق في نسبه.

أما الأدلة على أنه إيراني شيعي، فهي صريحة متعددة في الكتاب الذي ألّفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان، الذي كان يلازمه في زياراته لإيران. وقد مات ابن أخته هذا سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ - ١٩٢٢م) فعهد ابنهُ صفات الله الأسدبادي إلى حسين كاظم زاده بنشره، فنشره في برلين لأول مرة سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م)، حيث كان يقيم وقتذاك. ثم تُرجم الكتاب إلى العربية سنة ١٩٥٧

تحت عنوان (جمال الدين الأسد بادي). وقد أثبت المؤلف والمترجمان بأدلة كثيرة أن جمال الدين كان إيرانياً من أسد آباد (بالقرب من همذان)، وكان شيعياً. ولم يكن أفغانياً من أسعد أباد (من أعمال كابل بأفغانستان)، كما لم يكن سُنّياً حنفي المذهب، على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين الناس. فبقيّةُ أسرته لا تزال في أسد أباد. وقد حقق نَسَبه وزار أسرتَه عنايتُ الله خان، عمُّ أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق. واسمُ والده واسمُ خادمه يدلان على أنه شيعي إيراني. فاسم والده (صَفْدَر)، يعني (مفرّق الأعداء) وهي عند الشيعة صفة لسيدنا علي رضي الله عنه. والاسم وَقْفٌ على الشيعة، لا يتسمى به أحد من الأفغانيين. واسم خادمه الذي كان يلازمه دائماً، والذي تركه بعد رحيله عن مصر في رعاية تلميذه محمد عبده، هو (أبو تراب)، وهي كنية سيدنا علي رضي الله عنه، ولا وجود لهذا الاسم في غير إيران. ولهجةُ جمال الدين الفارسية تقطع بأنه إيراني، وأصدقاؤه المقربون الذين كانوا يلازمونه في الأستانة كانوا من الإيرانيين. وكان تفكيرهُ دائماً متجهاً إلى إيران وإلى اتخاذها مركزاً للجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها، كما يبدو من مقالٍ له في العروة الوثقى[1].

وثقافةُ جمال الدين الفلسفية وتوسعه في دراسة المنطق وعلم الكلام، إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول، هي الدراسة الشيعية التقليدية، التي تُنَمّي مَلَكة الجدل وقوة الاستدلال. والدراسة السُنّية تتّبع طريقاً آخر يقوم على دراسة الفقه والأصول والحديث والتفسير واللغة والأدب.

ولكنَّ جمال الدين أخفى أصله الإيراني، لأنه كان يريد أن يُخفي تشيعه عن الناس في البلاد العثمانية التي تنقّل فيها، وأهلُها سُنّيَّة حَنفية كالأفغان. وقد استفاد جمال الدين من انتسابه للأفغان، لأنه أصبح بعيداً عن سلطة ممثلي إيران وقناصلها في الخارج. وكان من السهل أن تَرُوج أفغانيته بين الناس في البلاد

---

(١) ٢ : ١٠٤ ط. بيروت ـ ص ٣٠ من كتاب جمال الدين الأسد بادي. والمقال بتاريخ ٢٢ شوال ١٣٠١ (١٨٨٤/٨/١٤ م).

التي نزلها ، لأن أفغانستان لم يكن لها تمثيل خارجي في ذلك الوقت ، وكان للإنجليز نفوذ كبير فيها ، فكانوا يرعون أتباعها في الخارج .

ومما يَريبُ الباحثَ في أمر جمال الدين وأهدافه ايضاً أن أكثر نشاطه كان سِرّيّاً ، فقد كان أولَ من أدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث في مصر ، وكان حيثما حل يؤسس الجمعيات السرية وَينْشرها، فأسس الحزب الوطني الحر في مصر أثناء إقامته بها ، وكان حزباً سرياً، لم يمض على تأسيسه عامٌ واحد حتى أصبح أعضاؤه ٢٠١٨٠ عضواً ، وأصبح له رَصيدٌ ضخم في المصارف[١] .

وأنشأ جمعية (مصر الفتاة) السرية ، وأنشأ صحيفةً تنطق باسمها هي صحيفة (مصر الفتاة) ، ولم يكن فيها مصري واحد كما روى تلميذهُ محمد عبده في كتاب (أسباب الحوادث العرابية)، وكان أغلبُ أعضائها من شبان اليهود[٢] .

وأنشأ أثناء إقامته في الهند جمعية (العروة الوثقى) السرية ، التي امتد نشاطها إلى الشام وإلى مصر وإلى السودان وتونس . وكان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من أنجاله ورجاله ، ومنهم محمد أحمد المهدي السوداني الذي تتلمذ على الأفغاني في مصر أربع سنوات[٣] .

وقد حفظ الجزء الثاني من (تاريخ الأستاذ الإمام) لمحمد رشيد رضا عدداً من الرسائل التي تداولها محمد عبده مع أعضاء هذه الجمعية، وهي مليئة بالإشارات والرموز. وبعض هذه الإشارات يدل على أن محمد عبده قد دخل سّراً إلى مصر، استعداداً لدخول السودان والاتصال بالمهدي، ومر أثناء هذه الجولة بتونس وبالشام، حيث كان يعمل على (إحكام العُرْوة وتمكين عقودها) حسب تعبيره[٤]. وكانت صحيفة (العروة الوثقي) التي أنشأها جمال الدين مع

---

(١) جمال الدين الأسد بادي ص ٦٣ ، خاطرات جمال الدين للمخزومي باشا ٤٤ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٥ .

(٣) جمال الدين الأسد بادي ص ٦١ .

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٢٨٣ ، ٣٨٠ ، ٢ : ٥٥٣ ـ ٥٥٨ .

تلميذه محمد عبده في باريس هي الصحيفةَ الناطقةَ باسم هذه الجمعية السياسية السرية .

ثم أنشأ محفلاً ماسونياً تابعاً للشرق الفرنسي ، ضم إليه عدداً كبيراً من أصحاب النفوذ في مصر بمساعدة رياض باشا رئيس الوزراء. وهو الذي استقدمه إلى مصر، وتولى رعايته فيها، وأجرى عليه راتباً شهرياً ، وأعد له سكناً في خان الخليلي، ويقال : إنه كان في حارة اليهود[1] .

ويتصل بهذا النشاط السِّري الذي لازمه في كل مكان تهييجُه على الثورات، وتشجيعه على تأسيس الصحف التي تخدم أغراضه، وتنشر آراءه، وتُشيد بذكره ، فهو الذي أنشأ صحيفة (مصر). وعهد بإدارتها إلى أديب إسحاق، وكان قد قدم إلى الإسكندرية للاشتراك في التمثيل المسرحي مع سليم نقاش ، ثم أسس صحيفة (التجارة) بالإسكندرية، وعهد بإدارتها إلى أديب إسحاق وسليم نقاش ، فكانا لا يزالان يُشيدان بذكره، في مثل قولهما : (مهبط أسرار الحكمة وإسطرلاب فلك العلوم ، وإسْطَقْس هَيُولَى الفلسفة)، إلى غير ذلك مما اعتادا أن يصفاه به[2].

وقد طلب إلى تلميذيه محمد عبده وإبراهيم اللقاني أن يساهما في تحرير صحيفة (التجارة)، وكان هو نفسه يشترك ببعض مقالات، يوقِّعها باسمٍ مستعار هو (مُظهرِ بن وَضَّاح).

وليس مهمّاً أن تكون المبادىء التي تُنشَر على الناس وتذاع سليمةً أو منحرفة ، فالذي يُنشَر على الناس دائماً نظيف وسليم . ولكن المهم هو أن الذين يشتركون في التنظيمات السرية يجهلون دائماً حقيقةَ أهدافها ، ولا يعرفون إلا ما يريد رؤوس التنظيم السري أن يُعرَف بين الناس. والدارسُ لتاريخ الدعوات السرية في الإسلام ولتاريخ الباطنية أو الإسماعيلية على وجه الخصوص يرى

---

(١) جمال الدين الأفغاني لمحمود قاسم ص ٢٣ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٥ .

الشاهد على ذلك في بدئهم بالدعوة إلى إعلاء كلمة الله وإنصاف المحرومين ، وانتهائهم آخر الأمر إلى عقيدة فلسفية تنكر الأديان وتخوض في دماء المسلمين . وغاراتُهم على قوافل الحجاج وتنكيلُهم بهم في المسجد الحرام أمرٌ مشهور في كتب التاريخ .

وقد غمس جمال الدين يده فِعْلاً في الدم الحرام ، وكان مستعداً دائماً لأن يغمس يده فيه ، فهو مسؤُول عن اغتيال ناصر الدين شاه إيران . كان لا يزال يؤلب عليه في كل مكان منذ طرده من إيران ١٨٩١م وأخرجه من الضريح المقدس عند الشيعة الذي كان قد عاذ به ولجأ إليه ، وهو (بقعة حضرة عبد العظيم المقدسة). فاتصل برجل هاربٍ من إيران يدعى (ميرزا رضا الكرماني) وحرضه على قتله، فتسلل إلى إيران واغتاله سنة ١٨٩٦ في المكان نفسه الذي طُرِد منه الأفغاني[١] وقد فكر الأفغاني بموافقة محمد عبده في اغتيال الخديوي إسماعيل أثناء مروره على كوبري قصر النيل ، لأن جمال الدين كان متفقاً على برنامج الحكم مع ابنه توفيق، الذي كان قد نجح في ضمه إلى محفله الماسوني . وقد اشترك مِنْ بَعْدُ مع نوبار باشا في السعي لعزل إسماعيل[٢].

وليس مهمّاً أن يكون الذين اشترك في اغتيالهم ، أو دَبره وفكّر فيه ، مفسدين أو مصلحين. ولكن المهم هو أنه كان يتخذ الاغتيال وسيلة من وسائله السياسية ، ويخوض الدماء في سبيل الوصول إلى أهدافه ، وهو ما لا يحله الإسلام، ولا يفعله مسلم يؤمن بالله ويخشى عذابه ويقف عند حدوده . وهو يذكرنا مرة أخرى بوسائل الإسماعيلية الباطنية، ولا سيما الحسنُ بن الصَّبَّاح صاحبَ قلعة (ألُموت) .

إن الدارس المدّقق لسيرة جمال الدين لا يملك إلا أن يتوقف أمام كثيرمن الظواهر الغريبة في سيرته . إنه يتساءل: فيم تنقُّله السريع المفاجىء الذي

---

(١) جمال الدين الأسد بادي ص ٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ـ تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٥ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٤

لايَفتُر ، بين إيران وبلاد الأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا والنمسا وإنجلترا وروسيا ؟ وفيم هذه الأزياء المختلفة التي كان يَلبَسها لكل بلد ، والتي يحفل بصُوَرِها كتابُ ابنِ أخته ميرزا لطف الله خان ؟ فهو في زيٍّ عربي تارة ، وفي زي علماءِ الشيعة تارة أخرى، ومع جماعة من كبار علمائهم ومجتهديهم تارة ثالثة ، وفي طربوش تركي تارة رابعة، وفي زِي أفغاني تارة خامسة . فيم كل هذا ، وباغي الخير لا يحتاج إلى التَّستر والتخفي ، وإنما يتخفَّى المُريب ؟؟ ومن أين كان ينفق على هذه الرحلات ؟ وفيم كانت صِلَتُه بالمستر بْلَنْت ، ذلك الرجلِ الغريبِ، الذي كان لا يَفْتُر عن التنقل بين مضارب الأعراب في مصر وفي سورية وفي نجد ؟ يدعو المصريين إلى الثورة، ويتكلم بعدَ وقوعها باسم عرابي ، ويُقَدِّم له صوراً مضلِّلة عن صفته الرسمية وقدرتِه السياسية وقوةِ الجيوش الإنكليزية ، ثم يدافع عنه بعد اعتقاله ؟! ويدعو العَربَ إلى إنشاء دولة عربية، لأن الدولة العثمانية على وشك السقوط والانحلال، ولا ينبغي أن يشاركها العربُ هذا المصير ، فيجب أن يكوِّنوا دولة عربية حليفةً لإنجلترا تصبح مقراً للخلافة الإسلامية، ويكتب في ذلك كتابه المشهور ، الذي سماه (مستقبل الإسلام) (The Future of Islam)، والذي كان مصطفى كامل زعيمُ الحزب الوطني في مصر أولَ من تنبه الى خطورته ؟! فيم كانت صلةُ الأفغاني بهذا الرجل ، يَنزِل ضيفاً عليه عندما زار إنجلترا ، ويكتب إلى محمد عبده من بور سعيد وهو في طريقه إليها يطلب إليه أن يكون ردُّه بعنوان المستر بلنت ؟ بل فيم كانت صلتهُ بإنكلترا، يلجأ إلى سفيرها في الأستانة ، لكي يساعده على الخروج من تركيا، حين غضب عليه السلطان عبد الحميد[1] ؟

وباسم مَنْ كان يفاوض الإنجليز في الوصول إلى اتفاق مع تركيا ضد روسيا ؟ ومع المهدي للاعتراف باستقلال السودان ؟ وما هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يجتمع حول الرجل الذي كان صوتُه أعلى الاصوات في الدعوة

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٢ .

إلى الجامعة الإسلامية، وفي التنديد بفساد المجتمع الإسلامي والدعوة إلى إصلاحه ؟ سليم نقاش صاحب الكتاب الذي يحمل عنواناً غريباً في إبّان الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وهو (مصر للمصريين) شآمي نصراني . وأديب إسحاق من نصارى الشام أيضاً . وكان إذا ذُكر بعد موته في مجلس الأفغاني جاشت نفسه بالحزن وهو يقول :-(إنّا لله وإنّا إليه راجعون) . وطبيبُه الخاص يهودي يدعى هارون . وقد كان هو ونصراني آخر يدعى جورجي كونجي هما اللذان شهدا احتضاره وحدهما[1]. والذي كان يساعده في تحرير صحيفة العروة الوثقى مع محمد عبده رجلٌ مُريب من إيران يُدعى ميرزا باقر ، كان قد تنصر وصار داعية للنصرانية هناك مع جمعيةٍ للمبشرين ، ثم عاد إلى الإسلام ليشارك في تحرير الجريدة الداعية إلى الجامعة الإسلامية[2]. ومجالس الأفغاني كانت تضم خليطاً من المسلمين والنصارى واليهـود . هذا بالإضافة إلى ما أشيع من أنه كان ينزل في حارةاليهود، ومن أنّه ألّف جمعية سرية أعضاؤها من شباب اليهود. ولماذا كانت عداوته الشديدة للاستعمار الإنكليزي وحده دون الاستعمار الفرنسي والاستعمار الهولندي ؟ فلم تَرِد في صحيفة العروة الوثقى إشارةٌ للاستعمار الفرنسي في الجزائر ، كما لم ترد فيها إشارة للاحتلال الهولندي في أندونيسيا ، ولم تُشِر الصحيفة إلا إشارة عابرة لاحتلال الهند الصينية . نحن نعرف أن الأفغاني كان ينتسب حين دخل مصر إلى المحفل الماسوني الأُسكتلندي ، ثم اختلف معه فتحول إلى المحفل الماسوني الفرنسي[3] . فهل

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ١ : ٨١٧ .

(٣) خاطرات جمال الدين للمخزومي باشا ص ٤١ ـ ٥٠ وتراجع في ذلك اللوحتان المصورتان رقم ٤٠ ، ٤١ من كتاب (مجموعة أسناد ومدارك جاب نشده درباره جمال الدين مشهور به أفغاني) . واللوحة الأولى صورة خطية للطلب المقدم بخط جمال الدين الأفغاني إلى المحفل الماسوني طالباً الالتحاق به . وقد قدم نفسه في أوله بقوله (مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبع وثلاثون سنة) وتاريخه في أسفله ١٢٩٢ ربيع الثاني يوم الخميس ٢٢ . أما اللوحة الثانية فهي صورة خطية للخطاب المرسل إليه من محفل كوكب الشرق في القاهرة بمصر في ٧ جنايو ١٨٧٨/٥٨٧٨ (والتاريخ الثاني هو التاريخ اليهودي الذي يستعمله الماسون . ولست أدري إن كان المقصود بجنايو هو يناير أو يونيو) والخطاب يحدد (يوم الجمعة ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب لاستلام القادوم وتكريس الأفغاني رئيساً للمحفل) .

كانت عداوته للإنكليز مبنية على هذا الخلاف مع المحفل الماسوني الأسكتلندي ، مع ما هو معروف من استغلال الاستعمار للمحافل الماسونية ، إلى جانب ما هو معروف من صلتها بالصهيونية ؟ !

وبعدُ ، فما هي الأعماق الحقيقية والأغوار البعيدة لدعوة جمال الدين الأسد بادي ، التي كان يَبدُو على سطحها الظاهر دعوةً متحمسة إلى إصلاح المجتمع الإسلامي وجمعِ شمل المسلمين ؟ .

يصف أبو الهدى الصيادي هذا الرجل في خطاب كتبه إلى رشيد رضا سنة ١٨٩٨ م فيقول إنه (مارقٌ من الدِين ، كما مرق السهمُ من الرَّمِيَّة)[١] .

ويقول تلميذُه أديب إسحاق في ترجمته : إنه أحس بميل للتصوف في بدء حياته (فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة . . . ثم خرج من خلوته مستقرَّ الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية)[٢] .

ووصفه سليم العنحوري حين ترجم له في شرح ديوان (سِحْر هاروت)، فقال: إنه سافر إلى الهند (وهناك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجلّ العلوم الشرقية والتاريخ، وتبحر في لغة السانسكريت أُمِّ لغات الشرق ، وبرّز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقِدَميَّة العالم، زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوِّنةُ بترقّ وتحويرٍ طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفضاء ويتجاذبها الجو ، وأن القول بوجود مُحرِّكٍ أولَ حكيمٍ وَهْمٌ نشأ من ترقي الإنسان في تنظيم المعبود على حسب ترقِّيه في المعقولات)[٣] .

وقالت صحيفة «المقطم» في نعيه : إنه (كان مناراً للحرية والعرفان في كل مكان احتله . . . فقد الشرقُ فيه عالِماً يُهتدَى بعلمه وركناً يُعتمد عليه ، وداعياً إلى الحرية يُقتدَى به في الدعوة إليها) . وختمت الصحيفة النعي بقولها (فنعزي

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ١ : ٣٩ .

(٣) المرجع السابق ١ : ٤٣ .

جميع أنصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقده)[1] .

والحرية والأحرار أو أحرار الفكر هي ترجمة للكلمات الإنجليزية Free Thinkers, Liberals, Liberalism وهي ـ كما أسلفنا القول في المحاضرة السابقة ـ كلمات اصطلاحية، يراد بها إطلاق الفكر من كل قيد ، ومن العقائد الدينية على وجه الخصوص .

ووصَفَ رشيد رضا الأفغانيَّ بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود ، التي يَشْتَبِهُ فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية، وقال إن كلامه في النشوء والترقي يَشْتبِه بكلام داروين[2] .

وكتاب رشيد رضا إليه ، الذي كتبه في سنة ١٣١٠ (١٨٩٢م)، والذي أورد نَصّه في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) يثبت ذلك ، حيث يبدأ بقوله : (الحمد لله على إفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وعلى سيدي بل السيد المطلق . . . سدرةِ منتهى العرفان، وجنةِ مأوى المحاسن والإحسان ، الذي له في كل جو مُتَنَفَّس، ومن كل نار مُقْتَبَس ، الإمامِ المفرد، والعقل المجرَّد. . . بَدَلِ الأبْدال، سيد الآل ، الإنسانِ الكامل، الوارثِ الكامل ، المرشدِ الكامل .

مَهْبِطِ الفَيْض مَصْعَدِ الكَلِمِ الطيِّـ ـبِ مَجْلَى سِرِّ الجمالِ الأكملْ[3]

وأظهر منه في الدلالة على ذلك كتاب محمد عبده، الذي بعث به إليه من بيروت في ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢م) ـ بدأه بقوله :

«ليتني كنت أعلم ماذا أكتب إليك وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك ، صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادّنا صورها الكمالية، وأنشأتنا في أحسن تقويم، فبك عرفنا أنفسنا ، وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم أجمعين .

---

(١) المرجع السابق ١ : ٩٢ ـ ٩٣ ، مع ملاحظة أن فارس نمر باشا صاحب « المقطم » كان من كبار الماسون وكذلك كان صهره شاهين مكاريوس صاحب (اللطائف المصورة) .

(٢) المرجع السابق ١ : ٧٩ ـ ٨٠ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٥ .

فعِلمُك بنا كما لا يخفاك عِلْم من طريق الموجب . وهو علمُكَ بذاتك، وثقتُكَ بقدرتك وإرادتك، فعنكَ صَدَرْنا ، وإليكَ إليك المآب».

وفيه يقول مخاطباً الأفغاني :

«فصورتُك الظاهرة تجلت في قوى خيالية ، وامتد سلطانها على حسّي المشترك، وهي رسم الشهامة، وشبح الحكمة، وهيكل الكمال، فإليها رُدَّت جميعُ محسوساتي، وفيها فنيت مجامع شهوداتي، وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا ، وأنرت بها عقولنا ، ولطّفت بها نفوسنا ، بل التي بَطَنْتَ بها فينا ، فظهرتَ في أشخاصنا ، فكنّا أعدادَك وأنت الواحد ، وغَيْبَكَ وأنت الشاهد ، ورسمك الفوتغرافي الذي أقمته في صلاتي رقيباً على ما أقدم من أعمالي ، ومسيطراً عليّ في أحوالي ، وما تحركتُ حركة ، ولا تكلمتُ كلمة ، ولا مضيت إلى غاية، ولا انثنيت عن نهاية، حتى تطابق في عملي أحكام أرواحك وهي ثلاثة، فمضيتُ على حكمها سعياً في الخير، وإعلاءً لكلمة الحق ، وتأييداً لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة، ولستُ في ذلك إلا آلة لتنفيذ الرأي المثلّث وما لي من إرادة حتى ينقلب مربعاً. »

وفي هذا الكتاب يقول :

«فإني على بيّنة من أمر مولاي ، وإن كان في قوة بيانه ما يُشكّك الملائكة في معبودهم، والأنبياءَ في وَحْيهم».

وفيه يطلب نسخة من رسم فوتوغرافي حديث فيقول :

«ونستمنح من كرمه الواسع أن يمن علينا بأمرين، أحدهما إرسال رسمه الفوتغرافي الجديد . فإن هذا الخادم كان عنده نسختان من الفوتغرافية الأولى ، إحداهما أخذها أعوان الضبطية من بيتي عندما أودعتُ السجن ، كما أخذوا كتاب الماسون بخط مولاي المعظّم، والثانية استجدانيها سعد أفندي زغلول ، وهو من خواص محسوبيكم . ولشفقتي عليه تركتها له أياماً ليعيش أعواماً»[1].

---

(١) نقلاً عن وثيقة مصورة بخط محمد عبده (تصوير ١٣٤ ـ ١٣٧) في كتاب « مجموعة أسناد ومدارك چاپ نشده درباره جمال الدين مشهور به أفغاني » ، الذي نشرته جامعة طهران تحت رقم ٨٤١ ، والمحتوي على

ويشهد به كذلك كتابُ الأفغاني إلى محمد عبده عند مروره ببور سعيد في طريقه إلى لندن ، فقد بدأه بكلام غريب خرج فيه عما جرت عليه عادة المسلمين ، من البدء باسم الله وبحمده والصلاةِ على نبيه، فقال: (الابتهاجُ بجميل الصُّنْع جزاءٌ تُفِيض به جامعةُ الكون على النفوس ، كلما قامَتْ بوظائف الوُجود . والمَحْمَدَةُ شهادةٌ تَبْعَثُ مَلَكُوتُ وحدانيةِ الهيئةِ على بَثِّها متشخِّصاتِ الطبيعة في مَشْهَد العالَم ، تخليداً للجزاء ، وتعظيماً للأجر . فَلَكَ بجميل صُنْعِك مع «العارف» الجزاءُ الأَوْفى)[1]. وفي آخر هذا الخطاب يشير الأفغاني إلى عصابته الذين بايعوه بقوله : (وسَلِّمْ على كل من عَرَفَنا وَعَرَفْناه، واعترف بنا وسلَّمنا له). كما يطلب إبلاغ سلامه (لصاحب النفس الزكية ، والهِمّة العَلِيَّة ، دولتلو رياض باشا ، أيده الله تعالى) . .

ومن هذا القبيل أيضاً كتاب إبراهيم اللقّاني إلى جمال الدين الأفغاني ، الذي أرسله إليه من بيروت في ١٥ فبراير ١٨٨٣ م الموافق ٧ ربيع الثاني ١٣٠٠ هـ حسب ما جاء في صدره ، بتقديم التاريخ الميلادي على التاريخ الهجري[2] . وقد بدأه بقوله :

(إن راسل سواي حظيرة قدس مولاي وأنا لم أفعل فلا عجب ولا عقوق ، فإني أخَصُّ حَشَمِ تلك الحظيرةِ وأقربهم إلى قُدْسها ، فأنا أشدهم خوفاً من مولاي ، وأبعدُهم تصوُّراً لعظمته ، وما تصورت غير العجز عن التصور . فكلما نزع بي الوجد إلى المراسلة ، غشيني من هذا التصور غاش

= الوثائق التي عثر عليها عند جمال الدين الأفغاني . وفي أسفلها توقيع باسم (خادمكم محمد عبده) . وقد نشر رشيد رضا هذه الرسالة في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام « ج ٢ ص ٢٩٩ » وقدم لها بقوله :

« ومن كتاب له إلى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر إلى بيروت ، وهو أغرب كتبه ، بل هو الشاذ ، فيما وصف به أستاذه السيد ، مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم . وفيه من الإغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه ، وان كان من قبيل الشعريات . وكذا ما وصف به نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة » .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٢٨٢ . وهو يقصد بالعارف خادمة أبا تراب .

(٢) اللوحات المصورة رقم ١٠٦ - ١١٧ من كتاب « مجموعة أسناد ومدارك جاب نشده درباره جمال الدين مشهور به أفغاني » السابق ذكره .

عمّني هيبة ودهشة ، وأفعمني ذهولاً وغشية ، حتى لا أعقلَ إلا العجز، ولا أعيَ إلا القصور ، ولا أسمعَ إلا الزجر ، ولا أبصرَ إلا الحطّة، ولا أحسَّ إلا الضعف ، ولا أجدَ إلا الحيرة . بل هذه كلها كلمات أكني بها عما يعروني حينئذ من الأحوال كما يكنّى بما في الدنيا عما في الجنة).

وفي هذا الخطاب يعتذر إبراهيم اللقاني عما (اقترفه من سوء الأدب بسبب الجرأة على إرادة مراسلة مولى لا تُطاول أعناقُ الحكماء موطئ نعله في العلياء، مولى لا ندري هل هو يعلم الحكمة أم الحكمة تعلمه، ولا نفقه مَن المَعْنَى ومَن المَبْنَى منهما ، مولى لا نتحاشى أن نقول فيه إن روح الطبيعة برزت في ثيابه لتهدي عالمها إلى ما تريده من أسرارها).

والآراء السائدة في هذه الرسائل ، والتي هي قدر مشترك بين الأستاذ وتلاميذه ، من مثل كلام الأفغاني عن «جامعةالكون» و «ملكوت وحدانية الهيئة» و «متشخصات الطبيعة» وكلام المويلحي عن «روح الطبيعة»، وغلوّ محمد عبده في وصف الأفغاني بما لا يوصف به إلا الخالق جل شأنه ، وجرأتِه على الملائكة والأنبياء، كل ذلك لا يكشف عن عقيدة سليمة أو إسلام صحيح .

وحَكَى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية (حسن أفندي فهمي) عن الأفغاني حين كان في زيارته الأولى للأستانة أنه جَعَلَ النبوّة صنعةً، وسوّى بينها وبين الفلسفة، وأمَرَ الوعاظَ في المساجد أن يهاجموه ويُفنّدوا قوله ، وانتهى الأمرُ بإجلائه عن الأستانة في زيارته الأولى لها وسفره إلى مصر[1].

ولما تصدر الأفغاني في القاهرة للتدريس في الأزهر هاجَمَه علماؤه ، وكان الشيخ عُليش - وهو عالم مَن علماء الأزهر مغربيُّ الأصل مشهورٌ بتدينه وشدة غَيرته على الإسلام - أعنفَهم في ذلك ، فكان يروغ بعكازه على جمال الدين وتلاميذِه في صحن الأزهر ، حتى انقطع عنه ، وأصبح يجتمع بتلاميذه في بيته أو في قهوة البوستة .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٣٠ - ٣١ .

هذه أقوال لا تدعو إلى الاطمئنان لظاهر أمر الأفغاني، وتدعو إلى التنقيب عما وارءَ هذا الظاهر. ومع ما أَطَلْنَا في الحديث عنه، فنحن لم نصل بعدُ إلى نتيجة محقَّقة، وغايةُ ما وَصَلْنا إليه هو الدعوة إلى إعادة النظر في أمره، والتنبيهُ إلى أنه كان ذا أهداف سياسية خطيرة، تُذَكِّرنا بأهداف الباطنية وأساليبهم، وهي مسألة يدعو إلى التأمل فيها وتدبُّرِها ما ذكره رشيد رضا في تاريخه، من أن الأفغاني ومحمد عبده كانا يهدِفَان إلى إخراج الإنجليز من مصر والسودان، أو إقناعهم بترك السودان، بتكبير شأن دَعْوَى محمد أحمد للمهدوية، حتى إذا تيسَّر ذلك، وتم لهما هذا، ذهبَا إلى السودان خِفْيةً، ونظَّما فيه قوةَ محمد أحمد، تَوَسُّلاً إلى إنقاذ مصر بها، وتأسيسِ دولةٍ قويةٍ، يعتزُّ بها الإسلامُ والشرق، وتتحرر شعوبُها من الرق ـ ١ : ٣٨٠). وهذا كلام يُذَكِّرنا بقصة عبيد الله المهدي أول مُلُوك العُبَيْديين المشهورين باسم الفاطميين، الذين كانوا يُرسِلون رسلهم إلى المغرب، حتى إذا مَهَّدوا لهم الطريق، حضروا وأنشأوا دولتهم التي كانت تطمع في الاستيلاء على كل بلاد المسلمين.

وبعدُ، فلا بد لي من أن أقف عند هذا القدر في الكلام عن جمال الدين الأفغاني، وأن أكتفي بتأكيد مسؤوليته عن إنشاء الدعوات السريةفي المجتمعات الإسلامية الحديثة، وتشريع الاغتيال وسيلةً لتحقيق أهدافها، وتصعيد الدعوة إلى الحرية، التي بدأت كما رأينا مع الجيل الأول، جيلِ الطهطاوي وخيرِ الدين، وهي دعوة تشمل الحرية والتحرر بكل معانيها السياسية والفكرية والاجتماعية، وبكل ما تشتملان عليه من روح التمرد والانطلاق الذي يأبى كلَّ قيد ويرفُض كل موروث، ولو كان قيدَ الدين وميراثَه وتقاليدَه. وذلك كلُّه بالاضافة إلى سعيه لإفساد العقيدة الإسلامية واستعانتِه بأعداء الإسلام على تحقيق أهدافه.

وإذا ذُكِر الأفغاني، فلا بد ـ لاستكمال الصورة ـ من أن نذكر معه تلميذه محمد عبده، الذي نشر مذهبه وقدَّمه في صيغة مُغرِية جَذَبت إليها كثيراً من المخدوعين بظاهرها.

تنقسم حياة محمد عبده الفكرية والسياسية إلى قسمين، يتميز أحدهما عن

الآخر : القسم الأول هو الذي عمل فيه تحت إشراف الأفغاني، وكان فيه خادماً لأهدافه ، يرى بعينيه ، ويفكر بعقله ، ويكتب بوحيه ، وذلك واضح في رسائله التي ما أكثر ما تجدُ فيها مثلَ قوله : «فتلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء)[1]، أو قوله : (تلقيت من الأمر الجديد أن أنحو نحو الشرق ، حيثُ مَسِيلُ الحادثات)[2] أو قوله : (أُذِنْتُ أن أبعثَ لكَ ببعض القواعد التي ينبغي أن يُرفَعَ البناءُ عليها)[3] ، أو نحو ذلك مما يشهد أنه كان آلة في يده . ويتسم هذا الطورُ بالعُنْف ، وفيه مِمَّا يَرِيب ، ما رأينا من الأفغاني .

والقسم الثاني من حياته هو الذي عمل فيه بعد عودته إلى مصر في ظل صداقة اللورد كرومر والمستر بلنت ، مما تشهد به تقاريرُ كرومر السنوية وكتابُه عن مصر الحديثة (Modern Egypt)، وعن عباس الثاني ، ومذكراتُ المستر بْلَنْت (My Diaries)، وكتابه (التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر The Secret History of the British Occupation of Egypt)، وهي صداقة تركت أثرها في سلوك محمد عبده وفي آرائه .

يقول كرومر في تقريره السنوي عن عام ١٩٠٥ في الفقرة (٧) ، التي كتبها بعنوان (الشيخ محمد عبده). بمناسبة وفاته : (وكان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية، ولآرائه المتحرِّرةِ المستنيرة ، اثرُها في جَعْل مشورته والتعاون معه عظيمَ الجدوى). وضرب لذلك مثلاً فتواه المشهورة في ربح صناديق التوفير . ثم يقول، بعد أن يُشبِّه دور محمد عبده في مصر بدور السيد أحمد خان في الهند : (والأيامُ وحدَها هي التي ستكشف ، عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تَزَعَّمها الشيخ محمد عبده ، سوف تستطيع التسربَ إلى المجتمع الإسلامي . وأنا شديد الرجاء في أن تَنْجَح في اكتساب الأنصار تدريجياً ، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي ، في صورته الصحيحة

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٥٥٣

(٢) المرجع السابق ٢ : ٥٥٦ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٥٦٥ .

المبشِّرةِ بالآمال ، يَكْمِن في ذلك الطريق الذي رسمه الشيخ محمد عبده . وإنَّ أتباعه ليستحقون أن يُعاوَنوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوروبي وتشجيعِه).

ويقول كذلك في تقرير سنة ١٩٠٦، في الفقرة الثالثة ، التي تكلم فيها عن الوطنية المصرية، بعد أن عرض لفكرة الجامعة الإسلامية، وللحزب الوطني المتشبِّع بها : (إلى جانب هؤلاء الذين يدَّعون لأنفسهم صفة الوطنية، توجد جماعة أخرى من المصريين الذين لا يتمتعون بمثل شهرة الفريق الأول ، ولكنهم لا يَقِلُّون عن منافسيهم استحقاقاً لهذه الصفة ، بالرغم من اختلافهم معهم في المنهج الفكري وفي أسلوب العمل . وهذه الجماعةُ الصغيرة العدد ، والآخذةُ في الازدياد ، هي الحزب الذي يمكن أن أسميه على سبيل الاختصار بأتباع المفتي الأخير الشيخ محمد عبده[1]. . . . . وفكرتُهم الأساسية تَقُوم على إصلاح النُظُم الإسلامية المختلفة، دون إخلال بالقواعد الأساسية للعقيدة الإسلامية. فهم وطنيون حقاً ، بمعنى أنهم راغبون في ترقية مصالح مواطنيهم وإخوانهم في الدين، ولكنهم غيرُ متأثرين بدعوة الجامعة الإسلامية. ويتضمن برنامجهم ـ إن كنتُ قد فهمتُهُ حقَّ الفهم ـ التعاونَ مع الأوروبيين ، لا معارَضَتهم ، في إدخال الحضارة الغربية إلى بلادهم). ثم يشير إلى أنه ـ تشجيعاً لهذا الحزب ، وعلى سبيل التجربة ـ قد اختار أحَدَ رجالِه، وهو سعد زغلول ، وزيراً للمعارف. ويؤكد في نهاية الفقرة أنه (لن يكون هناك محل للتراجع في كل حال. إن العمل على إدخال الحضارة الغربية في مصر يسير سيراً حثيثاً ، في كل فرع من فروع الإدارة في الدولة ، على خطوطٍ كانت مَوْضِعَ العناية والدرس ، تقوم على التطوُّر والتدرج ، دون إحداث انقلابٍ أو تغييرٍ جذري مفاجىء).

ويردد كرومر هذه الآراء نفسَها في كتابه (Modern Egypt) الذي ظهر بعد ذلك بعامين (١٩٠٨) ، ويضيف إليه : (إني أشك كثيراً في أن صديقي محمد عبده كان لا أدْرِيّاً (Agnostic). ولو أني أعرف أنه كان يكره أن يوصف بهذه

---

(١) كرومر يعني بهذه الجماعة الحزب الذي ظهر بعد كتابه هذا التقرير بعام واحد ، وسمي « حزب الأمة ».

الصفة. وقد تَعوَّد أصدقاؤه ـ مع تقديرهم له ـ أن يعتبروه فيلسوفاً)[1].

أما وِلْفِرْدْ بْلَنْتْ فصِلَتهُ بمحمد عبده قديمة ، ترجع إلى صلته بأستاذه جمال الدين وصلتِه بالثورة العرابية . ثم جدد بْلَنْت هذه الصلة بمحمد عبده بعد عودته من المنفى ، إذ كانا يسكنان في دارين خَلَوِيَّتين متقاربتين بالمطرية . وكانا يلتقيان كل يوم ليتبادلا الحديث في موضوعات شتى ، كما ذكر المستر بلنت في مقدِّمة النسخة العربية من مذكراته الخاصة بمصر ، التي راجعها محمد عبده قبل وفاته ، ونُشِرت من بعدُ تحت اسم (التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر) .

يقول بلنت في يومياته بتاريخ ١٩٠٠/١/٢٨م عن صديقه محمد عبده ، بعد أن سجَّل حديثاً جرى بينهما عن الجنس البشري ومعاملةِ القويِّ للضعيف : (وعبدُه لا يؤمن بنهاية سعيدة للجنس البشري . وأخشى أن أقول إن محمد عبده ـ بالرغم من أنه المفتي الأعظم ـ ليس له من الثقة في الإسلام أكثر مما لي من الثقة في الكنيسة الكاثوليكية)[2].

وبلنت كان من المتحررين الذين لا يؤمنون بالمسيحية، ولا يحسنون الظن بالكنيسة الكاثوليكية، فَقَدَ إيمانه بقراءة داروين ، وكان واقعاً تحت تأثير بعض المفكرين الأوروبيين ، أمثال رينان وتولستوي ، الذين يفرِّقون بين تعاليم المسيح وبين التعاليم المستنبطة من القديس بطرس والكنيسةِ الكاثوليكية[3].

وتحدث بلنت في الفصل الخامس من كتابه (التاريخ السري) عن (زعماء الإصلاح في الأزهر)، وعما سماه (الإصلاح الديني الحر) ، الذي أرجعه إلى جمال الدين الأفغاني؟ ووصف صنيعه في (إطلاق العقول من الأغلال التي قيَّدتْها طوال الأجيال الماضية) بأنه (يماثل ما حدث من إحياءِ المسيحية بأوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) . ثم وصف بلَنْت لقاءَه الأول سنة

---

(١) (Modern Egypt 2: 599 London 1911) وكرومر يقصد بالجملة الأخيرة تسميتهم له بالحكيم . وكذلك كان رشيد رضا يشير إليه ، وإلى أستاذه الأفغاني ،إذا ذكرهما أو أشار اليهما .

(٢) My (Diaries) 1 : 346 - 28 Jan, 1900

(٣) (Arabic Thought In The Liberal Age 141 - 143)

١٨٨١ لمحمد عبده، الذي خَلَفَ جمالَ الدين الأفغاني (في زعامة حزب الإصلاح الحرّ في الأزهر)، فأبدى إعجابه الشديد بآرائه، (فيما يختص بتعاليم المسلمين الأحرار) ومخاوِفِهم وآمالِهم في المستقبل، وقال إن هذه المخاوفَ والآمال هي التي دوَّنها في كتابه (مستقبل الإسلام)[١].

ثم عاد للكلام عن هذا الكتاب في الفصل السادس، فقال إنه شَرَحَ هذه الآراءَ كما تعلَّمها من الشيخ محمد عبده، (أستاذ المدرسة الجديدة الحرة)[٢].

وواضحٌ من إصرار بلَنْت على وصف الإصلاح بأنه (حرّ)، ووصف المسلمين الذين يمثلهم محمد عبده بالأحرار، أن تفكير هذه المدرسة كان يتسم بنزعة عقلية تُقَرِّبهم من أحرار الغربيين، وتجعلهم صالحين للقيام بدور الوساطة، في التقريب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية، وهو العمل الذي يسعى الاستعمار إلى تحقيقه كما قدّمنا من قبل.

هذا هو رأي صديقين من ساسة الأوروبيين عرفا محمد عبده وعاشراه عن قرب، وهو متفق مع ما كتبه ساسةُ الغرب وباحثوه عنه من بعدُ، لا يخلو كتابٌ من الكتب العديدة التي تناولت تطور الفكر الإسلامي في العصر الحديث مما يؤيده ويؤكده.

كان سبيل محمد عبده للقيام بهذا الدور الذي يشجعه الاستعمار هو الدعوةَ إلى فتح باب الاجتهاد، وهي دعوة لا أريد أن أعود للحديث عنها، أكتفاءً بما قلتُه من قبل، ولكنني أريد أن أُضيف إلى ما قلتُه أنَّ هذه الدعوة قد استُغِلَّت أوسع استغلال، في تطوير الإسلام والاقتراب به من قِيَم الحضارة الغربية، وأن هذا التقريب المقصودَ، بين الإسلام وبين الفكر الغربي والحضارة الغربية، قد بلغ قمة التطرف، حين دخل محمد عبده في مفاوضات مع القسيس الإنجليزي إسحاق تيلور، للتقريب بين الإسلام والنصرانية، وهي المفاوضات

---

(١) التاريخ السري ١ : ١٣١ ـ ١٤٣ ط اخترنا لك.

(٢) المرجع السابق ٢ : ١٦٤.

التي أشار إليها رشيد رضا ، ونشر رسالتين منها في الجزء الثاني من تاريخه ، وبيّن اشتراك اليهود فيها في الجزء الأول[1] .

هذا هو الجديد في عمل محمد عبده في القسم الثاني من حياته : رعايةُ بعضِ الأفكار التي شهدناها وهي تُبذَر في التُرْبة الإسلامية بيد الطهطاوي وخير الدين وجيلهما ، والسهرُ على تطويرها برُوحٍ ، لا أقول كما قال بلنت (حرة) أو (متحررة)، ولكن أقول بروحٍ هادفةٍ تسعى إلى الاقتراب بها من القِيَم الغربية . ولأذكرْ رؤوس هذه المسائل على سبيل التذكير : الوطنيةُ الإقليمية، والعنايةُ بالتاريخ القديم السابق على الإسلام ـ الدعوةُ إلى الحرية ، وإلى الحياة النيابية، وإلى وضع دستور يحدد حقوق الحاكم والمحكوم، وواجباتِ كلٍّ منهما ـ الدعوة إلى إعادة النظر في وضع المرأة من المجتمع :في الحجاب ،والحدُّ من تعدد الزوجات، الحدُّ من حرية الطلاق . وكل هذه المسائل قد وَاصَلَ تلاميذُ محمد عبده من بعدُ تطويرَها حتى بلغت نهاية مداها . فالوطنيةُ الإقليمية والعنايةُ بالتاريخ الفرعوني والدعوةُ إلى الحرية قد رعاها من بعدُ تلميذُه لطفي السيد. وبلغت نهاية مداها على يد تلميذِه سعد زغلول . وأصبح الجانب الفكريُّ من الحرية موضع صراعٍ في العَقْد الثالث من القرن العشرين . حين ظهر كتاب طه حسين (الشعر الجاهلي) وكتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، وأصبح (الدستور) ـ وهو الجانبُ السياسيُّ من الحرية ـ هو الموضوعَ الذي يدور عليه صراعُ الأحزاب في هذه الفترة وما تلاها . أما شؤونُ المرأة فقد تطورت على يد قاسم أمين تلميذ محمد عبده ، ولم يزل أبناءُ هذه المدرسة يَرْعَوْنَ التطور، حتى تجاوز ما حدده له محمد عبده وقاسم أمين من حدود .

ومن الحق أن الذي يقرأ محمد عبده في مثل مناظراته مع رينان ومع فرح أنطون ، يحس أنه كان يريد أن يقيم سدّاً في وجه الاتجاه العلماني ، يَحْمِي المجتمعَ الإسلاميَّ من طُوفانه . ولكن الذي حدث ـ كما يقول حوراني في كتابه (Arabic Thought in the Liberal Age,) ـ هو أن هذا السد قد أصبح قنطرةً

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٥٦٨ ، ٥٨٢ ـ ٥٨٥ ، ١ : ٨١٧ ـ ٨٣٠ .

للعِلْمانية ، عَبَرتْ عليه إلى العالَم الإسلامي ، لتحتلَّ المواقع واحداً تِلْوَ الآخر ، ثم جاء فريقٌ من تلاميذ محمد عبده وأتباعِه ، فدفعوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى طريق العِلْمانية[1] .

* * * *

والذي يبدو لي هو أن دعوة الأفغاني التي رُبِّيَ محمد عبده في أحضانها كان لها ـ ككل الدعوات السرية ـ ظاهر وباطن ، فظاهرها يخاطِب الجماهير، وهو يصور ما يريد صاحبُ الدعوة أن يعرفه جمهور المسلمين عنها ، مما يعجبهم ويقع من قلوبهم موقعَ الارتياح والقبول . وباطنُها يمثل حقيقتها التي يُخفيها أصحابُها عن الناس ، ولا يكشفون الستر عنها قبل ان تحقق أهدافها بالوصول إلى مركز السلطة. ومحمد عبده كان تابعاً لسيده الأفغاني أو خادماً له، كما تعود هو نفسهُ أن يكتب إليه في بعض رسائله ، والأفغاني كان يريد أن يعيد الدور نفسَه الذي لعبه الإسماعيلية من أصحاب الدعوات الباطنية التي تتستر وراء التشيع، وتتقرب إلى جمهور المسلمين بأنها تدعو إلى خلافة أهل بيت النبوة. كان يريد أن يُعيد الدور نفسه الذي لعبه الإسماعيلية حين أقاموا دولتهم الفاطمية في مصر، بعد أن مهَّدوا لذلك بالاستيلاء على المغرب ، وانتظار الفرصة السانحة للزحف منه إلى مصر ، ولكن الأفغاني استبدل السودان بالمغرب في تخطيطه السِّريّ ، ومن هنا كان أهتمامُه بثورة المهدي ومفاوضاته باسمها في انجلترا. ومن هنا كان إنشاؤه جمعية العروة الوثقى السرية التي انتشرت فروعُها في شمال إفريقية ، وفي الشام وفي السودان والتي وضع لها نظاماً يضاهي النظام الماسوني في درجاته[2] . ومن هنا أيضاً كانت صلتُه الوثيقة وصلةُ تلميذه محمد عبده من بعده بالمستر بلانت ، الذي كان يَطوف هو وزوجته بالبلاد العربية مرتدياً الزيَّ العربي ليُثيرَ حميَّة العرب القومية ، ويَدْعُوَهم إلى إنشاء خلافةٍ عربية ، خدمةً لأهدافٍ يَغْلِبُ على ظني أن لها صلةً بالماسونية وبالصهيونية العالمية ، وان كانت لا تخلو من فائدةٍ

---

(١) المرجع المذكور ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٢٨٣ ، ٣٨٠ ، ٢ : ٥٥٣ ـ ٥٥٨ .

مشتركة للاستعمارين الإنجليزي والفرنسي المتربصَيْن بالدولة العثمانية والطامعَيْن في اقتسام ممتلكاتها بينهما . من أجل ذلك كان من وراء الأفغاني ومحمد عبده كليهما قوتان كبيرتان تعملان على ترويج آرائهما ، وإعلاء ذكرهما، وهما الماسونية ـ قمةُ الأجهزة الصهيونية السرية ـ والاستعمار . وقد نجحت هاتان القوتان في تدعيم زعامتهما الفكرية والدينية في المجتمع الإسلامي كلِّه ، وفي إضعاف أثر أعدائهما الكثيري العدد من علماء الإسلام المعاصرين ، وحَجْبِ ما كتبوه عن جمهور القراء ، فلم يمض على موت محمد عبده أكثرُ من رُبْع قرن حتى أصبح الأزهر ـ موطن المعارضة الأصيل لمحمد عبده وللأفغاني ـ عامراً بأنصارهما الذين يحملون لواء الدعوة إلى (التجديد) وإلى (العصريَة)[1] . ولمن شاء أن يعرف المكان الصحيح والقيمة الحقيقية لمحمد عبده وللأفغاني أن ينظر في الصحف اليومية والمجلات الدورية وفي كتب الكُتَّاب اللبراليين الذين لا يسمحون بأن يُمَسَّ أيٌّ منهما ، والذين يهاجمون بفظاظة وشراسة كلَّ من يمسهما من قريب أو بعيد، مع أن هذه الصحفَ والمجلاتِ والكتَّابَ لا يُعرَفُ عنهم غَيْرةٌ على الإسلام في غير هذا الموضع، بل إنهم لا يثورون حين يُمَسّ رسول الإسلام ﷺ وأصحابُه ، ويَرْون أن ذلك مما تسعه حرية الفكر واختلافُ الرأي، بل إنهم يلتزمون التزاماً دقيقاً أن لا يُذكَر اسم محمد عبده إلا مقرونا بلقب (الإمام) ، ويذكرون اسم الرسول ﷺ مجرَّداً ، ويستكثرون إذا ذُكر الرجلُ من أصحابه أن يقولوا «سيدنا فلان» أو يُتْبعوه ، كما تعوَّد المسلمون ان يقولوا في الدعاء له: «رضي الله عنه».

---

(١) سجل اللورد كرومر في تقريره السنوي لسنة ١٩٠٥ الذي كتبه بمناسبة وفاة محمد عبده . قلة أتباعه في ذلك الوقت . وتقارير كرومر معروفة بدقتها في تحري الصدق ، لأنها ترفع إلى الحكومة الإنجليزية لتبني عليها سياستها . يقول اللورد في الفقرة رقم ٧ من تقرير ذلك العام ما ترجمته :

« وأتباع الشيخ محمد عبده في مصر ، إن كانوا ممتازين بذكائهم ، فهم نفر قليل . ويمكن أن نسميهم جيروندي الحركة الوطنية المصرية Girondists Of The Egyption National Movement.

وهم بما يستحدثونه من بدع يجعلون أنفسهم موضع الريبة ، بحيث لا يستطيعون أن يجتذبوا إلى صفوفهم جماعة المحافظين من المسلمين الذين يتمسكون بالأساليب القديمة في كل شأن من الشئون ، ويصرون على ذلك ، كما أنهم ـ من ناحية أخرى ـ تفصلهم هوة واسعة عن ذلك النفر من المتفرنجين ، الذين لم يبق لهم من إسلامهم إلا الأسماء . ومن ذلك نرى أنهم يقفون في منتصف الطريق بين الطرفين المتناقضين ، وهم بذلك يتعرضون للنقد =

لذلك رأيت أن أسوق جملة من النصوص التي وردت في كتب المعاصرين لمحمد عبده ، الذين نبَّهوا إلى فساد فكره ، وانحراف مذهبه ، ومذهب أستاذه الأفغاني . وأول ما أبدأ به نقلُ نصوصٍ لأحد أتراب محمد عبده ، الذي صحبه في طلب العلم وشهد الأفغاني وحضر بعض مجالسه ، وظل على صلة بمحمد عبده إلى آخر عمره ، وهو الشيخ محمد الجنبيهي[1] . وسوف أستكثر وأطيل في نقل نصوص من كتابه (بَلَايَا بُوزَا) الذي صدر ١٩٢٦ عقب ظهور كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي)، لأنه نموذج لذلك الفكر المعارض للأفغاني ومحمد عبده الذي اندثر تماماً ، واختفى من الأسواق وأصبح مجهولاً عند الناس .

و (بوزا) عند الشيخ محمد الجنبيهي رمز لطه حسين ولمحمد عبده ولكل معاند يصر على الباطل ويأبى التحول عنه ، وهو كما يقول في صدر كتابه (قطعة من خشب وزنها خفيف ، وجِرْمُها صغير لا قيمة لها ، صنعها صانعُها على هيئة قُبُل الرجال الموصوف بأنه عضو التناسل . ولقد رُكبت تلك القطعة على مُقَعَّر من رصاص ثقيل لا تستطيع أن تتحول عن ذلك المركز الذي وُضِعَت فيه بحالٍ

= والتجريح من الطرفين كليهما ، كما هو الشأن في السياسيين الذين يسلكون مسلكاً وسطاً . ولكني أحب أن أضيف إلى ذلك أن المعارضة التي تصدر عن المحافظين أكثر أهمية إلى مدى بعيد من تلك التي تصدر عن المتفرنجين في المجتمع المصري ، وهي معارضة لم تعد تسمع في الأيام الأخيرة إلا قليلاً » .

« والأيام وحدها هي التي ستكشف عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ محمد عبده سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي . وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجياً ، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال يكمن في هذا الطريق الذي رسمه الشيخ محمد عبده ، وإن أتباعه ليستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع عن عطف الأوربي وتشجيعه » .

ويدل كذلك على ضعف نفوذ محمد عبده في الأزهر وكثرة المعارضين له من رجاله ضيقهُ الشديد به ، حتى لقد كان إذا ذكره لا يذكره ـ كما يروي رشيد رضا ـ إلا بقوله (الإصطبل) و(المارستان) و(المخروب) ـ تاريخ الأستاذ الأمام ١ : ٤٩٥ .

(١) نسبةً إلى (جَنْبيه) وهي قرية في إقليم (البحيرة) الذي ينتمي محمد عبده الى قرية أخرى فيه . وهو من علماء الأزهر المعروفين بالصلاح والتقوى ، وهو والد عبد العزيز باشا محمد رئيس محكمة النقض ووزير الأوقاف . وكان الشيخ الشنقيطي متزوجاً أخته . امتد به العمر إلى أكثر من عشرين عاماً بعد وفاة محمد عبده سنة ١٩٠٤ . وله عدة مؤلفات من بينها (الرزايا العصرية) و (بَلَايَا بُوزا) . وهو الكتاب الذي أنقل عنه ما أسوق من نصوص . وقد كتبه سنة ١٩٢٦ م بعد أن ألف طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي). وثارت حوله ضجة وصودرت نسخه ،

من الأحوال، فتراها كلما ألقيت فوق الأرض، كانت قائمة على هيئة الذكر. وتسمى تلك القطعة في اصطلاح الفرنساويين (بوزا). وأما في اصطلاح المصريين (زبّ الأرض). وقد ضربها عقلاء الأقدمين مثلاً لكل ضال حائر مغرور في لَسَانَةٍ بسفه، فَفَقَدَ مزايا الأدباء، وشذ عن مناهج الفضلاء، متلبساً بعناد وإصرار شيطاني من حيث لا يشعر بما يقول، ولا بما يعمل، فلا تتوجه به أعماله إلا إلى مخالفة الفضلاء ومعارضة الأدباء بما لا يعلم عاقبته، ولا يستطيع أن يقيم على صحته دليلاً - ص ٢٨).

وقصة طه حسين عند محمد الجنبيهي هي نفسها قصة محمد عبده، في عمل الاستعمار وأعداء الإسلام على إعلاء شأنها. (فالأسباب التي جعلت ابن عبده الغرابلي[1]. محبوباً لفحول السياسيين ولولاة الأمور من الدول المتحالفة على محو الإسلام اسماً ورسماً، وصيّرته محموداً عند محرري الجرائد الأوربية تتمدح باسمه، وتعتني بعمل تذكار له، هي بعينها الأسباب التي يتناول بها أستاذ الجامعة المصرية مرتباً كبيراً بسبب شهادة الدكتوراه التي نالها من أوربا لسبب عداوته للدين ورجاله، حتى يكون إذا أعلوا شأنه فتنة لأبناء المسلمين - ص ٣٥).

يروي الجنبيهي قصته مع محمد عبده وأستاذه الأفغاني فيقول:

«نشأت بعد بلوغ الرشد وطلب العلم في الأزهر الشريف مصاحباً لتلميذ جمال الدين الأفغاني ومحاذياً له قَدَماً بقدمٍ بعدما أتى جمال الدين الديار المصرية. وكثيراً ما جالست ذلك الرجل، وتذاكرت معه مذاكرات ذكرتُها في بعض الكتب. وما كان يدعوني إلى مجالسته إلا صاحبي الذي كان يظن أن يجذبني إلى الميل إلى ما مال إليه من فتنة ذلك الفاتن. وكنت أطمع أن أكون سبباً في خلاصه من تلك الفتنة (ولكن اللَّهَ غالِبٌ على أمْره). ولقد كان الفارق بيني وبينه في الشؤون المقدّرة في سابقة الأزل أنه عاشَ في كَنَف أهل الطريق أعواماً،

---

(١) لقبه الجنبيهي بالغرابلي، لأن أهله من (الغَجَر) الذين يسمون في بعض البلاد العربية (النَّوَر) أو (الصَّلَب). وهم. يسكنون خياماً رثة من (الخيش) ويمتهنون صناعات صغيرة منها صناعة الغرابيل التي تتخذ سُيورها من جلود الحيوانات الميتة كالحمير.

لينتفع بأسرار ما دوّنوه في كتبهم من تجرّبات المتجرّدين ، الذين كانوا يريدون الانقطاع عن الأسباب والاشتغال بما يُصلِح بينَهم وبين ربِّهم . وكنتُ أنا في مبدأ أمري ميالاً لسبيل المسرفين[1]. ولكني ما كنت أستطيع أن أفِرَّ من معصيةٍ إلا بمانع إلهي قهري ، ولا أعمل طاعة إلا بجاذبٍ قويٍّ . فكانت نهاية أمر ذلك الصاحب أنه أبغض أهل الطريق ، لأن الله سبحانه وتعالى حرمه من مزايا أسرارهم ، لأن نيّته في العمل ما كانت مشابهة لنوايا المتجردين ، فلما جمعته المقادير بجمال الدين الأفغاني ، وسمع منه الطعن على الصوفيّة وعلى أئمة الدين وعلى الخلافة الإسلامية توهّم أنه العالِم الوحيد ، فكان أوّلَ تلميذ له ، يجتمع عليه من صبيان الطلبة كل من كُتِبَ عليه الشقاء ، وحقّت عليه كلمة العذاب ـ ص ٣٨).

(وكان نهاية أمري أن تباعدت عن طريق المسرفين لأسباب سماوية . وتوجهَتْ أمياليِ إلى ما عليه أهل الإيمان الصادق . وكان السبب في ذلك أن المقادير جمعت بيني وبين كثير من المرشدين بطرق قهرية لا يسع المقامُ ذكرَها ، وقد كانت تصل إليّ مدوّنات الصالحين وأدعية المرشدين وأورادُهم ومواعظهم من غير طلبٍ مني ، ثم كانت تواجهني رجالُ الهداية والتوفيق بلا قصد ولا سابقة التفكر ، فكنت أنا وذلك الصاحب في النهاية على طرفي نقيض . وكان كلٌّ منا يعلم ما عليه الآخر من حفظ آداب الصحبة التي كنا عليها ، وذلك والله من عجائب الأقدار، وغرائب الاقتدار ، وأظن أن حكمة الله سبحانه وتعالى في استمرار تلك الصحبة وفقد التنافر، مع تباين الشؤون في الأعمال والعقائد، ما هي إلا أن يحيط كلٌّ منا علماً بأعمال الآخر ، ليحذِّر منها الذين اتبعوه ، كما أنه ما سلك طريق الأبرار ولم تَرُقْ في نظره إلا ليمقتهم ، وينفِّر منهم كلَّ من حكمت عليه المقادير باتباعه. وما سلكتُ طريق المسرفين ولم تَرُق في نظري ولا مالت إليها قابليّتي إلا لأبغض أهلها ، وأتباعد عنهم ، وأقبِّح لمن أحبني أعمالهم ـ ص ٣٩).

---

(١) يقول ذلك على عادة اهل الصلاح والتقوى في سوء ظنهن بانفسهم وبأعمالهم .

ويقول الجنبيهي في سبب نفوره من الأفغاني، بعد أن روى الحديث القدسي (كنتُ كنزاً مَخْفِيًا فأحببتُ أن أُعرَف فخلَقتُ الخَلْقَ. فبي عرفوني) :

«ولقد كان لي في هذا الحديث القدسي مع جمال الدين الأفغاني واقعة كانت سبباً لعدم اتصالي به ، مع شديد رغبته ورغبة تلميذه الذي أشرنا إليه من قبل. وتلك الواقعةهي أني سألته عن هذا الحديث،لعلمي أنه ينكر الأحاديث القدسيّة، لأنه طبيعي لا يَعترف بوجود إله . وكنا في جَمْع من الناس . فقال: ليس هذا وقت الكلام على هذا الحديث . فأمهلني لوقت آخر . فاتفق من طريق الصدفة أني رأيته جالساً وحده في مجالس اللاهين في قهوة من القهاوي المجاورة لمنتزه الأزبكية، فجئته وهو واضع طربوشه على ترابيزة القهوة ، وجالس وحده . فقلت له : هذا هو وقت الكلام على ذلك الحديث الشريف . فما كان جوابه إلا أن قال: ذهب فيلسوف إلى المنتزه في يوم العيد ، فوجد الناس على حال مضحك ، منهم من هو مخمور ، ومنهم من هو لاعب ، ومنهم من هو مرافق لامرأة من المومسات ، ومنهم من هو راقص ، ومنهم من هو متلبس بما لا يرتضيه أبناء البشر ، فنظر ذلك الفيلسوف إلى السماء قائلاً : الآن وقَعَتْ الحسرةُ في قلبك ، أهؤلاء كلهُم عرفوك ؟! فعند ذلك تغير حالي وعلمتُ أن الرجل ضالّ. فقلت له : إن هذا الفيلسوف لأحمق ومجنون . قال: ولِمَ ذلك ؟ قلت : لأن من جهل ربّه في الدنيا يعرفه فيما بعد الموت . ومن جهله في الرخاء يعرفه في الشدّة . فما ذلك الفيلسوف إلا ضَائع العقل والدين، ثم تركت الرجل محزوناً ، لأن فتنته لم تؤثر في قلبي أثراً كان يريده، وكان ذلك الموقفُ آخر عهدي به - ص ١١٩).

ويقول الجنبيهي في صلة محمد عبده باللورد كرومر وبالمستر بلانت ، اللذين عملا كلاهما على إعلاء شأنه وذيوع صيته، توسلاً إلى تحقيق مخططاتهما ، باتخاذه آلة لهذا الغرض :

«لما شرعت القوة البريطانية في نفي الخونة العرابيين[1]، ذلك النفي

---

(١) يرى المؤلف أن عرابي كان خائناً ، وأنه كان يمثل الجناح الحربي في مدرسة الأفغاني ، بينما كان محمد =

الصوري ، كان نفي ابن عبده الغرابلي في البلاد الشامية وحده ، ليفتن فيها من أراد الله فتنته . فلما انقضت مدة النفي ، ورجع إلى الديار المصرية ، كانت ثقة اللورد كرومر به أكبر ثقة . فسكن في (منشية الصدر) بعيداً عن عيون الرقباء ، وكانت الواسطة بينه وبين اللورد رجلاً إنكليزياً يسمى (بلنت)(١) كان يتزيا هو وزوجته بزي عرب البادية ، وكانا يحيطان علماً بلغات القبائل العربية وأنسابهم ، وعوائدهم ، وكانا يسكنان في (عين شمس) قريباً من (منشية الصدر). فلما قويت رابطة التواصل بين ذلك الإنكليزي ، وبين ابن عبده الغرابلي أعطاه قطعة أرض من ملكه في (عين شمس) ليكون له جاراً ، وفي ذلك الحين اتخذه اللورد أستاذاً ومرشداً يسترشد برأيه في كل عمل يطلبه في تنفيذ الغرض الذي أجمع عليه السياسيون ، فكان الإصلاح الأزهري الذي ذهب بالدين وعلمه النافع أدراج الرياح من إشارات ذلك المفتون ، وكذلك كان إصلاح المحاكم الشرعية . . . . وكان من مساعدة اللورد كرومر لشيخه ومرشده أن ولاه مناصب القضاء الأهلي، حتى وصل به إلى وظيفة «مستشار». وذلك أمر من أعجب

= عبده يمثل الجناح الفكري ، ويستدل على ذلك بصلتها المشتركة وصلة أستاذها الأفغاني من قبل بالمستر بلانت ، الذي كان يعمل على تمزيق الدولة الإسلامية . فالمستر بلانت ـ كما هو معروف ـ هو الذي تولى الدفاع عن عرابي في محاكمته ، وهو الذي أصدر بياناً باسم الثورة العرابية نشره في جريدة التيمز ، يصف فيه الحزب الوطني الذي أعد للثورة بأنه (حزب سياسي لا ديني ـ الاتجاهات الوطنية ١ : ١٥٤) . أما صلة بلانت بمحمد عبده فهي مشهورة معروفة . وقد صدر كتاب بلانت المشهور (التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر) بالاشتراك مع محمد عبده . فقد راجع نسخته العربية التي تم طبعها وظهورها قبل النسخة الإنجليزية (The Secret History of the British Occupation of Egypt) أما صلة بلانت بالأفغاني ، فهي ثابتة من مجموع الوثائق التي أصدرتها جامعة طهران . وفيها صور لرسائل خطبة تبادلها الأفغاني والمستر بلانت وزوجته (عانا بلانت) راجع اللوحات المصورة رقم ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ من كتاب « سيد جمال الدين مشهوربه أفغاني » رقم ٨٤١ من مطبوعات جامعة طهران .) ويرى الجنبيهي كذلك أن عزل الخديوي إسماعيل كان مخططا ، بالإيتاع بينه وبين الدولة العثمانية ، لأنه كان يقف عقبة في طريق الأفغاني ، ولأن ابنه (الخديوي توفيق) الذي حل محله كان على ولاء للأفغاني ، الذي نجح في ضمه للمحافل الماسونية . وذلك بالرغم من أنه هو الذي أمر بنفيه فيما بعد وإبعاده عن مصر ، حين تبين له خطره (ص ٤٨ ـ ٥٠) .

(١) راجع « الاتجاهات الوطنية » ١ : ٢٥ في سعي بلانت لإنشاء خلافة إسلامية عربية حليفة لإنجلترا ، ورد مصطفى كامل عليه .

الأمور، لأنه لا يتولى ذلك المنصب إلا المتخرجون في المدارس الأهلية النظامية، وما سمعنا بطالب علم يلبس ثوباً رثا ونعلاً بالية، بالصورة التي صوره بها بعض الإنكيز، يتولى منصب المستشارين بغير استحقاق، إلا مرشد اللورد. ثم عينه مفتياً بالديار المصرية، ليكون له الحق في التدخل في شؤون الأزهر[1]، الذي أجمع السياسيون على إخرابه. وهناك ابتدأت بلايا (زب الأرض) في الظهور. فكان كل من أراد أن يلتحق بالمناصب العالية يتظاهر بازدراء الدين ورجاله، ويكون كزب الأرض في ثباته على تمثيل هيئة العناد والإصرار، بعدم الانقياد لأي واعظ كان من النصحاء ـ ص ٥٠ إلى ٥٢).

ويذكر الجنبيهي مهاجمة محمد عبده للتصوف ورجاله، ويعلل ذلك بأن محمد عبده قد فعل ذلك خدمة للاستعمار الفرنسي، الذي كان رجال التصوف من المغاربة هم الذين يحملون راية الجهاد في محاربته ومقاومته، ويقول: إن رد محمد عبده على هانوتو كان مسرحية بارعة أعدت لهذا الغرض. يقول المؤلف:

«وقد كان للصوفية شأن عظيم في الجزائر التي احتلها الفرنساويون، فكانوا ـ أعني الصوفية ـ الذين هم جماعة الشيخ ظافر، معارضين لدولة فرنسا، فلما اجتمع هانوتو بابن عبده الغرابلي تصنع ذلك السؤال المتفقين عليه، ليرد عليه ذلك الصديق بالطعن على الصوفية، ليذهب بشوكتهم القوية في بلاد الجزائر، وقد أعجب البسطاء بذلك الرد، متوهمين أن ابن عبده الغرابلي يدافع عن الدين، وما هو إلا هادم لأركانه، ومبغض للمتمسكين به، ولا غرابة في ذلك، لأن الله تبارك وتعالى جعله من الأئمة الذين يسارعون في الكفر ـ ص ٥٢).

ويروي محمد الجنبيهي أن محمد عبده مات حسرةً حين تخلى عنه اللورد كرومر في الواقعة التي كانت بينه وبين رواق المغاربة فيقول:

«إن اللورد كرومر أجهد نفسه في إعلاء شأن ابن عبده الغرابلي، وجعل

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يراجع «الاتجاهات الوطنية» ١: ٣٣٧ وما بعدها، ٢: ٣٠٥ وما بعدها.

له نفوذاً تاماً في جميع الدوائر السياسية، حتى صيَّره نافذ الإرادة والأمر في القصر المصري بحالة تدهش المفكرين . وتستميل قلوب البسطاء من الأمة إليه ، ليستعمله في تنفيذ الأغراض السياسية التي أجمع عليها ساسة الدولة المتحالفة. وقد ذكرناها من قبل[1]. فلما ولاه وظيفة الإفتاء ليتداخل في الشؤون الأزهرية ، ووقعت الواقعة التي كانت بينه وبين رواق المغاربة وهم حماية فرنسا ، ورفعوا أمرهم لسفير تلك الدولة ، وخاطب ذلك السفير سمو الخديوي في ذلك الشأن ، فقرر سموه (أعني عباس باشا الثاني) انفصال الإفتاء عن الأزهر ، وهناك توهم ابن عبده الغرابلي أن اللورد كرومر يقف في تلك الواقعة موقف المانعين ، فكتب أبياتاً من الشعر معناها أن من العجب أن ذئب (عابدين) يعوي ، وأسد دار الحماية يسمع ويسكت ، وهذا نص البيتين :

(قصرَ الدوبارة) ما لليثك رابضاً والذئب في بيت الإمارة يحجل
إني سمعت (بعابدين) عواءه فعجبت كيف يسود من لا يعقل[2]

ثم توجه بهما إلى دار الحماية ظاناً أن اللورد كرومر ينخدع لهذا التملق ويسرّ بازدرائه لسمو الخديوي. فما كان خطابه لذلك المغرور إلا أن قال له : ما كنت أظن أنك جهول بالسياسة إلى هذا الحد . أتريد أن توقع بين بريطانيا وفرنسا ؟! اذهب من حيث أتيت فإني لا أتداخل في هذا الأمر، فكانت هي الضربة القاضية على ابن عبده الغرابلي . وكانت سبب حسرته ، حتى مات مصاباً بما يصاب به أهل الحسرة ، فلما قضى نحبه نعاه اللورد كرومر نعياً سياسياً[3] يستنهض به أتباعه الذين افتتنوا به ، حتى يكونوا مكانه في التضليل، وفي تنفيذ ما أجمع عليه السياسيون مما سبق بيانه . وهذه عبارة نعيه التي نشرتها الجرائد في ذلك الحين : (فقدنا رجلاً كان يرشدنا في الدين، وفي السياسة، ونرجو من تلامذته ألا تخور عزائمهم بموته). فكان ذلك النعي سبباً في تظاهر

---

(١) وهي تتلخص في محاربة الدين الإسلامي وإضعاف نفوذه وسلطته في المجتمع .

(٢) « قصر الدوبارة » مقر كرومر ، و « قصر عابدين » مقر الخديوي .

(٣) يشير إلى الفقرة (٧) من تقرير سنة ١٩٠٥ ، التي ترجمت شطراً منها في الهامش رقم ١ ص ٨٠ .

السفلة بالطعن على رجال الدين ، وازدراء أوامر الله ونواهيه ، تنفيذاً لتلك الأغراض السياسية . فأجهدوا نفوسهم تفنناً في إنشاء الفتن التي تذهب بمجد الأمة ودينها ، وتجعلها أوروباوية لا عربية ولا إسلامية، فكان منهم صاحب (تحرير المرأة)، الذي سن التهتك للنساء في المدن والقرى . وكان منهم صاحب (المنار)، الذي نادى على ابن عبده الغرابلي بأنه الإمام العليم الحكيم[1] ـ ص ٥٤، ٥٥).

ونستطيع أن نضيف إلى رأي الشيخ محمد الجَنْبيهي في الأفغاني ومحمد عبده ، ومدرستهما رأي عالم أزهري آخر معاصر أيضاً لقي كلاً من محمد عبده وشيخه الأفغاني وعاشرهما، وهو الشيخ يوسف النبهاني[2]. اجتمع بالأفغاني ومحمد عبده في القاهرة حين كان مجاوراً في (الأزهر)، ثم عاد، فالتقى الشيخ محمد عبده في بيروت اثناء إقامته بها منفياً بعد فشل الثورة العرابية ومحاكمة زعمائها، حين كان النبهاني رئيساً لمحكمة الحقوق بها . ونشأت بينهما مودة ، فكان محمد عبده يزور يوسف النبهاني في أكثر الأيام . والقيمة الكبرى للرأيين، رأي الجنبيهي والنبهاني ، تعود إلى أن لرأي كل منهما قيمة أخرى إلى جانب قيمته الفقهية والفكرية، وهو أنه شهادة من شاهدَيْ عَدْلٍ معاصرين. فكلاهما كان معروفاً بين أهل عصره بالصلاح والتقوى والعلم ، وكلاهما كان صديقاً لمحمد عبده لم يصدر في كلامه عن حقد أو ضغينة ، ثم إن الرأيين يصوران

---

(١) مؤلف « تحرير المرأة » هو قاسم أمين أحد تلاميذ محمد عبده . وصاحب مجلة « المنار » الشهرية هو رشيد رضا أبرز تلاميذ محمد عبده وأكثرهم تعصباً له .

(٢) يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني (١٢٦٥ ـ ١٣٥٠ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٣٢ م) جاء في معجم « الأعلام » للزركلي « شاعر أديب من رجال القضاء » نسبته إلى (بني نبهان) من عرب البادية بفلسطين . استوطنوا قرية إجْزِمْ ـ بصيغة الأمر ـ التابعة لحيفا في شمالي فلسطين . وبها ولد ونشأ . وتعلم بالأزهر بمصر (١٢٨٣ ـ ١٢٨٩ هـ) . وذهب إلى الأستانة فعمل في تحرير جريدة (الجوائب) وتصحيح ما يطبع في مطبعتها ، ورجع إلى بلاد الشام (١٢٩٦) فتنقل في اعمال القضاء إلى أن صار رئيساً لمحكمة الحقوق ببيروت(١٣٠٥) ، وأقام بها زيادة على عشرين سنة ، وسافر إلى (المدينة) مجاوراً ، ونشبت الحرب العالمية الأولى فعاد إلى قريته وتوفي بها .» .

ووهم الزركلي فيما زعم من أنه توفي بقريته ، لأن له قبراً معروفاً في مدافن الباشورة ببيروت . وأورد الزركلي في بقية ترجمته أسماء مؤلفاته . ثم قال « ولمحمود شكري الألوسي كتابان في الرد عليه : أحدهما (غاية الأماني في الرد على النبهاني) والثاني (الآية الكبرى في الرد على الرائية الصغرى

الجانب الآخر لصدى دعوة الأفغاني ومحمد عبده عند المعاصرين، وهو الجانب الذي اختفى الآن، أو كاد يختفي تحت تأثير الضغوط والحماية التي تساند هذه المدرسة وتحارب خصومها.

أوضح يوسف النبهاني رأيه في أكثر من موضع من مؤلفاته، شعراً ونثراً. أثبته نثراً في كتابه «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق». وأوضحه شعراً في قصيدته «الرائية الصغرى» التي طبعها مستقلة، ثم أعاد طباعتها ضمن ديوانه «العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية». ولخص رأيه في هذه المدرسة في مقدمته فقال[1]:

«لما اجتمعت بالشيخ رشيد رضا[2] ذاكرته بشأن شيخه الشيخ محمد عبده، فقلت له في شأنه: إنكم تتخذونه قدوة في دينكم، وتدعون الناس إلى ذلك، وهذا غير صواب، فإنه لم يكن محافظاً على الفرائض الدينية، فلا يصح أن يكون قدوة في الدين. فمن المعلوم المسلَّم أنه كان يترك كثيراً من الصلوات بلا عذر، وأنا نفسي رافقته من وقت الضحى إلى قبيل المغرب عند رجل كان دعانا في جبل لبنان، فلم يُصلِّ الظهر ولا العصر، ولم يكن له عذر، بل كان بكمال الصحة، ورآني صليت الظهر والعصر ولم يصلِّهما، فسلَّم الشيخ رشيد رضا تركه لبعض الصوات، وقال في الجواب عنه: لعل مذهبه يجوِّز الجَمْعَ في الحَضَر، فتعجبت من هذا الجواب، لأن الجَمْعَ إنما يجوز في السفر والمطر والمرض عند بعض الأئمة بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، كما صح عنه ﷺ ذلك، ولم يقل أحد إن الظهر والعصر يجمعان مع المغرب والعشاء حتى نحتمل صحة هذا الجواب ولو جدَلا.

قلت له: وأيضاً كان تاركاً للحج إلى بيت الله الحرام مع الاستطاعة.

---

(١) ص ٣٤ وما بعدها من كتاب «العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية».

(٢) اجتمع به في سنة ١٣٢٦هـ (وهي توافق ١٩٠٨م) كما جاء في قصيدته (الرائية الصغرى) حيث قال:

ومن نحو عام جاءني فنصحته ... كما تنصح الثعبان أو تنصح الفأرا

وذاكراته في شيخه وهو عبده ... تملكه الشيطان عن قومه قسرا

وقد جاء في ص ٤٠٠ من كتابه (العقود اللؤلؤية) أنه أنشأ هذه القصيدة سنة ١٣٢٧ هـ.

وبتلك الاستطاعة التي كان مالكاً لها من القوة الجسمية والمالية كان يحج باريز ولندرة وغيرهما من بلاد أوروبا وغيرها مراراً كثيرة ، ولم يخطر له أن يكون سفره مرة واحدة للحج ، مع قرب الديار ، فلا شك أنه آثم بذلك أشد الإثم، وتارك لركن من أركان الإسلام .

ثم قلت له : ومما لا يختلف فيه أحد أنه كان هو وشيخه الشيخ جمال الدين الأفغاني داخلين في الجمعية المسونية، وهي لا تجتمع مع الدين بوجهٍ من الوجوه ، بل هي ترفض الأديان كلها ، وهي ضد السلطات كلها ، الدينية وغيرها، فكيف يمكن أن يكون قدوة في دين الإسلام مع كونه مسونياً، وكذلك شيخه. فقال الشيخ رشيد: نعم هما داخلان في المسونية ، ولكن أنا لم أدخل فيها .

قلت له: فلو قلتم: إن الشيخ محمد عبده هو فيلسوف الإسلام، بمنزله ابن سينا والفارابي، لسلمنا لكم ذلك ، وإن كان خلاف الحقيقة، لأنه لا ضرر فيه علينا ، ولا على ديننا ، وأما أن يكون من أفسق الفساق بتركه أركان الإسلام ، ومع ذلك تقولون عنه : إنه في دين الإسلام إمام ، فهذا شيء منكر لا يقبله أحد من ذوي الأحلام . فقال الشيخ رشيد : نحن لا نعتبره مثل ابن سينا ، ولكن نعتبره مثل الإمام الغزالي . فانظر رحمك الله لهذا الضلال وهذه المكابرة، فإنه يسلِّم أنه كان تاركاً للصلاة والحج وأنه كان مسونياً، ويقول : إنه مثل الغزالي. وفي الحقيقة ، كلُّ واحد من هذه الفرقة الضالة يعتقد نفسه أجلَّ من الغزالي، لأنهم يدَّعون الاجتهاد المطلق ، صغيرهم وكبيرهم، والإمام الغزالي لم يدع الاجتهاد المطلق ، بل صرّح في (الإحياء) بعدم وجود المجتهد المطلق في عصره بقوله كما هو في حكم جميع أهل العصر، وكذلك الفخر الرازي صرح بذلك، وغيرُهما من الأعلام . وهؤلاء الجهال كلُّ واحد منهم يعد نفسه بمنزلة الأئمة الأربعة رضي الله عنهم . وقد رسخ هذا الضلال في نفوسهم الخبيثة ، فليس للموعظة فيهم أدنى تأثير، وهم يجتهدون في أن تكون الناس على شاكلتهم ضالين مضلين، ومع هذا الفساد العظيم يزعمون أنهم هم مصلحون لهذا الدين المبين . ولا شك أنهم من جملة الذين شملهم قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرضِ قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وناقش النبهاني دعوى الاجتهاد المطلق في موضع آخر من كتابه فقال[1].

«واعلم أن هؤلاء المفتونين يدعون الاجتهاد المطلق، واستنباط الاحكام من الكتاب والسنة ، ويرفضون المذاهب الأربعة مع جهلهم المركب ، وفسقهم المحقق ، وتهتكهم في أنواع المعاصي من الكبائر والصغائر وسائر الآثام، وتركهم ما عدا الشهادتين من أركان الإسلام ، فلا صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام . ومع كونهم كالأنعام أو أضل من الأنعام يدعي كل واحد منهم أنه من أئمة الإسلام ، ويدعو الناس إلى الاجتهاد حتى العوام ، وهم مع كل ذلك لا يتقيدون بالحلال والحرام ، وإنما دينهم كلام في كلام . وصارت أحكام الدين عندهم كل ما خطر ببالهم ، ووافق أغراضهم، وجرى على ألسنتهم من الألفاظ المنمقة، والمعاني الملفقة التي تلقفوها من مقالات الفلاسفة وكتاب الإفرنج مما لا يوافق دين الإسلام ، ولا يقوله من عنده في هذا الدين أدنى إلمام ، فينشرونه في كتبهم وجرائدهم بصفة ترضي إخوانهم مُرَّاق المدارس، وفُسَّاق العوام ، الذين لا يبالون بالإسلام ولا بأحكام الإسلام . وقد يستدلون على غير فهم وعلم ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ليوهموا العوام أنهم إنما يأخذون من الكتاب والسنة ما يلفقونه من الأحكام».

ثم قال :

«إن هؤلاء المفتونين الضالين قد مشوا ببدعتهم على أثر البروتستانت من النصارى، الذين يدَّعون إصلاح دين النصرانية، بتركهم العمل بأقوال أئمتهم السابقين، والاقتصار على ما في التوراة والإنجيل من أحكام الدين . وقد أخطأ هؤلاء الطغام بتقليدهم أولئك الأقوام ، لأن ما زاده أئمتهم على التوراة والإنجيل ليس له أصل فيهما ، وإنما هو من ترتيب مجامعهم، أما أئمة الإسلام، فلم يزيدوا على الكتاب والسنة شيئاً من عند أنفسهم، بل جميع أحكام المذاهب

---

(١) العقود اللؤلؤية ص ٤٠٠ .

الأربعة مأخوذة من صريح الكتاب والسنة وهو أكثر الأحكام، أو مستندة إلى الإجماع الذي هو مستند إليهما، أو إلى أحدهما ولابد، أو مستندة إلى القياس الصحيح عليهما أو على أحدهما. فليس هناك حكم في المذاهب الأربعة خارج عن الكتاب والسُّنة من كل الوجوه، ولا يمكن أن يستعملوا القياس إلا إذا لم توجد آية أو حديث يصلح للاستدلال. »

ويذكر المؤلف في موضع ثالث من كتابه (ص ٣٥٨) محاولة رشيد رضا ورفاقه من مدرسة محمد عبده نشر مذهبهم بتقليد الإرساليات البروتستانتية، حين دعوا إلى المؤتمر الديني في القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) فلم يتيسر لهم الاجتماع، ثم ألفوا (جمعية الدعوة والإرشاد) للتبشير بمذهبهم الجديد سنة ١٣٢٩ هـ. ثم يعقّب على ذلك بقوله:

«وقد سهل على هؤلاء المبتدعين تقليد البروتستانت، ولم يسهل عليهم تقليد أئمة المذاهب الأربعة، كما أنهم سهل عليهم تقليد إخوان الشياطين مثل محمد عبده وجمال الدين، ولم يسهل عليهم تقليد أئمة الأمة المحمدية بأسرها منذ أكثر من ألف سنة. »

من ذلك يتبين أن مآخذ النبهاني على هذه الجماعة تنحصر في أمرين:

أولهما: هو دعوى الاجتهاد المطلق مع عدم الكفاية من الناحية العلمية. ومع فساد الاستعداد من الناحية الروحية، وسوء السيرة من الناحية الخلقية والسلوكية.

وثانيهما: هو أنهم مع ترفعهم عن الاقتداء بالأئمة الأعلام من فقهاء المسلمين يقتدون بالبروتستانت في تنقيح الإسلام، وبالمجامع المقدسة المسيحية في اتخاذ قرارات تعمل على تطوير الإسلام أو تحسينه حسب زعمهم، بالزيادة والنقص.

وقد تتبع النبهاني زعماء هذه المدرسة: الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، في قصيدته (الرائية الصغرى، في ذم البدعة ومدح السُّنّة الغرّا)، وهي قصيدة طويلة تبلغ ٥٥٣ بيتاً، فخص كل فرد منهم بقدر ما منها.

يقول في سوء سيرة كل المنتمين إلى هذه الجماعة :

تراهم إباحيين أو هم نظيرُهم ... إذا كنتَ عن أسرارهم تكشف السِّتْرا
وكل امرىء لا يستحي في جداله ... من الكِذْب والتلفيق مهما أتى نُكْرا
فمَنْ قال صَلُّوا قال قائلهم له ... يجوز لنا في البيت نجمعُها قَصْرا
وإن قيل لا تشربْ يقول شربتُها ... بقصد الشِّفا أو قال ليس اسمُها خَمْرا
فيجهر كلٌّ بالمعاصي مجادلاً ... بما نَفَثَ الشيطان في قلبه سرا
فلا صام ، لا صلى ، ولا حج ، لاحَبَا ... فقيراً وإنْ أودَى به فقره بِرَّا
وفي الألف منهم واحد ربما أتى ... مساجدنَا لكنْ إذا كان مضطَرا
وأخبرني من لا أشكُّ بصدقه ... بأنْ قد رأى من بال منهم بلا استِبْرا[1]
ولازمه حتى أتى بَعْدُ مسجداً ... فصلى ولم يُحدِثْ من الحَدَث الطُّهْرا
وآخر منهم قد أقام صلاته ... بدون اغتسال مَعْ جَنابته الكبرى
على وجه كلٍّ من ظلامٍ علامةٌ ... به عرَّفَتْ من لم يكن يعرف الأمرا

ثم يقول :

أولئك أنصار الضلال وحِزْبُه ... وإنْ قدَّرَ الرحمنُ منهم لنا نَصْرا
فإياك أن تغتر منهم بفاجر ... وإن أنت قد شاهدت من فعله الخيرا
فذلك شيء جاء ضد طباعهم ... وقد فعلوا أضعاف أضعافِه شرا
وكم أيَّد الإسلامَ ربي بفاجر ... فنُهْدِي له لا الفاجِرِ الحمد والشكرا
أشدُّ من الكفار فينا نِكايةً ... وأعظمُ منهم في ديانتنا ضَرّا
من الكفر ذو الإسلام يأخذ حِذْرَه ... ومن هؤلاء القوم لا يأخذ الحِذْرا

ويقول في التقائه بالأفغاني سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٦م) في القاهرة ، وما كان من طرد الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الأزهر له من حلقته بعد زجره :

---

(١) الاستبراء أن يتربص الإنسان إذا بال بعد البول حتى يتحقق انقطاعه ويعتقد براءته منه .

أتى مصر مطروداً فعاب بقُطرها ... فيا قبحه شيخاً ويا حُسْنَه قُطْرا
وكنت بذاك الحين فيها مجاوراً ... بأزهرها صاحبتُ أنجُمَه الزُّهْرا
بتاريخ ستٍّ والثمانين قد تلت ... مع المائتين الالف في الهجرة الغرّا
حضرتُ بفِقْه الشافعي خطِيبَهُ ... على شيخ شِرْبينٍ فألفيتُه بَحْرا
وجاء جمال الدين يوماً لدرسه ... فألقى على الأستاذ أسئلة تَتْرَى
نفاضت عليه من معارف شيخنا ... سيولٌ أرَتْه علمَه عنده قَطْرا
فإذْ شمَّ منه الشيخُ ريح ضَلالِهِ ... وإلحَادِه أوْلاه مَعْ طردِه زجْرا
وداكرتُه يوماً فأخبر أنَّه ... كأستاذنا لم يُلْفِ في مِصْرِهِ خَبْرا
ومن بعد هذا حاز في مصر شهرة ... وألقى دروساً للفلاسف في مصرا
وحين أتاه ذلك الحينَ عبدُهُ ... وأمثالهُ أفشى لهم ذلك السِّرا
أسَرَّ لهم نَحْوَ المذاهب كلِّها ... ليرجع هذا الدينُ في زعمِه بِكرا

ويقول في صداقة محمد عبده لكرومر ممثل الاحتلال الإنجليزي في مصر :

تَولَّع بالدنيا وصيَّر دينَه ... إليها على ما فيه من خِفَّةٍ جسرا
يميناً إذا كانت يميناً، وإن تكن ... يساراً سعى يعدو إليها من اليسرى
فمن جهةٍ يُدعَى الإمامَ، ويَقْتَدي ... بأعمال أهل الكفرِ من جهةٍ أخرى
يذم خيارَ المسلمين وعندمَا ... يَرَى حاجةً للكفر يستحسِن الكفرا
لكيما يُقالَ الشيخُ حرٌّ ضميرُه ... فيبلغَ عند القوم مرتبةً كبرى
وأيَّد أعداءَ البلاد بسعيه ... وأوهَمَ أهلَ الجهل أنّ بهم خيرا
يُحسِّن بين الناس قُبحَ فِعالهم ... ومهما أساؤوا راح يلتمس العذرا
بمقدار ما خان البلاد وما أتَى ... لأعدائها نُصْحاً علا عندهم قَدْرا
ونال بجَاهِ القوم في الناس رتبةً ... بها حاز فيمن شاءه النَفْعَ والضرا
فمِنْ رهبةٍ أو رغبةٍ كم سعى له ... طَغَامٌ من الجهَّال أكسبَهُمْ خُسْرا
وألقى لهم درساً يخالف حكمُه ... بأزهرها المعمورِ دين أبي الزَّهْرا
وقد ضَلَّ في القرآن معْ عُظْمِ نُورِه ... كما خَبَطَتْ عشراءُ في الليلة القَمْرا
أحذِّر كلَّ الناس من كتْبِ دينه ... وبالرد والإعراض تفسيرُهُ أحْرَى

ويقول في فساد سيرته أثناء إقامته في بيروت، وفي فتواه المشهورة بالفتوى الترنسڤالية[1]:

يعاشرُ نسوان النصارى ولا يرى ... بذلك من بأسٍ وإنْ كَشَفَ السِّتْرا[2]
ويأكل مَعْهم كلَّ ما يأكلونه ... ويشربها حمراءَ إن شاء أو صفرا
ويفتي بِحلِّ المسكرات جميعها ... إذا هي بالأسماء خالفت الخمرا
ويأكل مخنوقاً ويُفتي بِحلِّه ... لئلا يقولوا إنه ارتكب الوِزْرا
وتحليلُه لبس البوانيط والربا ... به بعضُ أهلِ العلم قد أَلْحَقَ الكُفْرَا
وقد كنت في لبنان يوماً صحبته ... لقرب غروب الشمس من ضَحْوَةٍ كبرى
وصليتُ فرض الظهر والعصر بعده ... لديه وما صلىّ هو الظهرَ والعصرا
وقبل غروب الشمس صاحبتُ شيخه ... لقرب العشا أيام جاورت في مصرا
ولم أره أدّى فريضة مغرب ... فقاطعت شيخ السوء من أجلها الدَّهْرا

ويقول النبهاني في قصيدته هذه: إنه لقي رشيد رضا أول مرة في بيروت،

---

(١) راجع الفتوى والظروف التي أحاطت بها في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٦٦٨ ـ ٧١٦ .

(٢) قال الشاعر في هامش هذه الأبيات (العقود اللؤلؤية ص ٣٧٠) :

« الذي أعلمه من حال الشيخ محمد عبده ، وكل من عرفه يعلمه كذلك ، أنه حينما كان في بيروت منفياً كان كثير المخالطة للنصارى والزيارة لهم في بيوتهم والاختلاط مع نسائهم بدون تستر . هذا مما يعلمه كل من عرف حاله في هذه البلاد ، فضلاً عن أسفاره المشهورة إلى بلاد أوروبا واختلاطه بنساء الإفرنج وارتكابه المنكرات من شرب الخمر وترك الصلوات . ولم يدع هو نفسه الصلاح ، ولا أحد توهمه فيه . فكيف يكون قدوة وإماماً في دين الإسلام ، نعم هو إمام للفساق والمرَّاق مثله . ولذلك تراهم على شاكلته ، لا حج ولا صلاة ولا صيام ولا غيرها من شرائع الإسلام » . وقال بعد ذلك :

« دعاني رجل من أهل جبل لبنان سنة ١٣٠٥ هـ (أقول وهي توافق ١٨٨٨ م) إلى بيته فتوجهت معه فوجدت هنالك الشيخ محمد عبده . فتصاحبنا من الصباح إلى المساء لم أفارقه نهاراً كاملاً . فصليت الظهر والعصر ولم يصل ظهراً ولا عصراً . ولم يكن به علة ولا عذر له ، إلا خوفه من أنه إذا صلى بحضوري يقول أولئك الحاضرون الذين كان لا يصلي أمامهم إنه يُرائي في هذه الصلاة لأجلي ، فغلب عليه شيطانه ، وأصرَّ على عدم الصلاة ، وإلا فقد بلغني عنه إنه كان يصلي تارة ويترك تارة ، والترك أكثر » .

وذكر أيضاً مثل ذلك في الأفغاني ، فقال : إنه اجتمع به سنة ١٢٨٧ هـ في مصر حين كان مجاوراً بالأزهر ، ولازمه من قبل الغروب إلى قرب العشاء فلم يصل المغرب .

حين جاءه في أول شبابه حليق اللحية أحمر الوجنتين ـ على غير عادة طلاب العلوم الشرعية من المسلمين وقتذاك ـ وكان نُصوحي بك والي بيروت في مجلسه فوبخه ، ثم عاد إليه بعد خمس عشرة سنة (لم يَزْدَدْ شُعوراً ولا شَعْراً) . ويختم ذلك بقوله (ص ٣٧٤) :

وذلك مَعْ ما فيه أهوَنُ أمرِه إذا ما به قيست فظائعهُ الأخرى

ويذكر بعد ذلك ادعاءه شرفَ الانتساب إلى آل بيت رسول الله ﷺ ، وبراءة ابن عمه من هذا الادعاء حين سأله فيه (ص ٣٧٥). ثم يشير إلى تقربه من الامريكان بما نشره في عدد شعبان سنة ١٣٢٧ هـ من مجلة المنار ، حين أذِنَ لشباب المسلمين من طلاب الكلية الأمريكية ببيروت أن يشاركوا أولاد النصارى في الصلاة بكنيسة هذه الكلية . ويعقب على ذلك بقوله :

فتاويه في الأحكام طوعَ اختياره تصرَّفَ كالمُلَّاك في دِينه حُرَّا
فيحظُر شيئاً كان بالأمس واجباً ويوجب شيئاً كان في أمسِهِ حَظْرا
فتحريمُه تحليلُهُ باشتِهَائه بأهوائه أحكامُهُ دائما تَطْرَا
ومذهبُه لا مَذْهَبٌ غير أنه يجادل عن أهوائه الشَّهْرَ والدَّهْرَا
يجادل أهلَ العلم بالجهل مُمْلِياً على فكرِه إبليسهُ كلَّ ما أجرَى
ويبقى على ما قد جرَى من كلامه مُصِرّاً ولو أجرَى بألفاظه كُفْرا

وذكر الشاعر بعد ذلك في قصيدته هذه ما لقى رشيد رضا من الطرد والضرب والإهانة حين حاول أن ينشر ضلالاته في مساجد طرابلس الشام ، فعَلاه أحد آل بيت المقدَّم بعصاه ـ وهم من نسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فشج رأسه ، وفي دمشق ، فأفحمه الشيخ صالح أفندي التونسي أحد أشراف المغاربة ، والشيخ عبد القادر الخطيب، وهو قادري النسب من السلالة الشريفة، وفي حمص وحماة فأنذره أهلها بترك بلديهم ، واضطروه للهرب إلى بلده (قَلَمون).

فعاد إلى مثواه في (قَلَمُونه) ومن خوفه كالضَّبِّ قد لزمَ الجُحْرا
فكانت له في عمره شرَّ رحلةٍ بها بين تُجَّار الهُدَى ربحَ الخُسْرا

وعاد إلى مِصْرٍ من الشام هارباً يُنَغِّصُ عن أعطافِه الموتَ والذُّعْرا

أمّا الذي تدعو إليه هذه الجماعة من إطلاق الاجتهاد دون تقيد بأحد المذاهب الأربعة فقد رد عليه النبهاني بكلام كثير في ثنايا قصيدته هذه . ومن ذلك قوله :

قد اختصروا بالجهل دينَ محمد وما تركوا من مُشْرِ أحكامه العُشْرا
لقد زعموا إصلاحه بفسادهم وكم عَمِلوا من ضلالتهم إصْرا
يقولون لا نَرْمي كتاباً وسُنَّةً ونتبع زيداً في الديانة أو عَمْرا
وذلك حقٌّ قصدُهم فيه باطل وخَيْرُ كلامٍ قد أرادوا به شَرّا
أرادوا به مِنْ جهلهم بنفوسهم لترفعَ دعوى الإجتهاد لهم قَدْرا
وما العِلْم شرطُ الإجتهاد ولا التُّقى لديهم ولكن كلُّ عَبْدٍ غدا حُرّا
وأقوى شروط الإجتهاد لديهم وقاحةُ وجهٍ حدُّه يَفْلِقُ الصخرا
يقولون إنا كالأئمة كلنا رجالٌ وما زادوا على أحمقٍ ظُفْرا
لقد أخطؤوا أين الثريّا من الثَّرى وما لِبُغاتِ الطير أن يُشْبِهَ النَّسْرا
يقولون أغنانا كتابٌ وسُنَّة ولم يُبْقيا فينا لغيرهما فَقْرا
وفي الألفْ منهم ليس يوجَد حافظ لجزءِ حديثٍ قَلَّ أو سُورةٍ تُقرا
وما قرؤوه منهما عن جَهالةٍ فلا سامعٌ منهما ولا عالِمٌ سِرّا

وهو يشبِّه كبار الأئمة بالبدور استمدت إشراقها من شمس الشريعة باستعدادها لقبول النور والإشراق. ويقول إن الناس لا تستوي في هذا الاستعداد، وأن الذي يتجاوز قَدْرَه ويدَّعي ما ليسَ له من أدعياء الاجتهاد لا يَجْني إلا الشَّر :

شريعةُ خير الخَلْق شمسٌ منيرةٌ وأنوارُها قد عَمَّت البَرَّ والبحرا
أضاءت بها الأكوانُ بَعْدَ ظلامها وكم ذا أمدَّتْ من أئمتنا بَدْرا
لقد أشرقت فيهم وفي كل مؤمن وأعطت لكلٍّ من أشعتها قَدْرا
ولكنْ بِقَدْر القابليّة نورُها يكون قليلاً بالقابل أو نَزْرَا
وهل يستوي أنْ قابَلَتْ بشُعاعِها جواهرهم أو أنها قابَلَتْ صخرا

وأجهلُ خَلْق الله مَنْ قال إنها ... بإشراقِها ساوَتْ مع الحَجَر الدُّرَّا
وكم من إمامٍ جاء في كل مذهب ... كبيرٍ به قد أحرز المذهبُ الفخرا
وما منهُمُ فردٌ بدعوى اجتهاده ... سمعنا له في غير مذهبه مَسْرَى
بَلَى من طريقٍ للولايةِ واضحٍ ... يجوز بقاءُ الإجتهاد ولا حَجْرَا
وأمّا طريقُ الدَّرْسِ بالنفس والهوى ... فكَمْ أوصَلَتْ للسالكين بها شَرّا
قد اجتهدوا فيها بحُكم نفوسهم ... فنالوا بها منها الكبائر والكِبْرا

ويقول النبهاني في تقليد هذه الجماعة للبروتستانت والمجامع المسيحية، مشيراً إلى حديث رسول الله ﷺ حيث يقول «لتتبعُنَّ مَنْ قبلَكم شِبْراً بِشِبْرٍ وذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حتى لو دَخَلُوا حُجْرَ ضَبٍّ لدَخَلْتُموه». وحين سأله أصحابُه مستوضِحين: اليهود والنصارى؟ قال ﷺ: فَمَنْ؟! يقول النبهاني مبيناً فساد تقليدهم لاختلاف الحالَيْن:

بفِعْل البُرُوسْتَنْتِ اقتدَوا باجتهادهم ... لقول رسول الله لو دَخَلوا جُحْرا
أولئك قد ألغَوْا زوائدَ دِينِهم ... وقد ضَلَّلُوا في ذلك القِسَّ والحَبْرا
قد اجتهدوا في دينهم حينما رأوا ... مَجَامِعَهم زادَتْه من نُكْرِه نُكْرا
ومهما يكن عذرٌ لهم باجتهادهم ... فمجتهدونا اليومَ قد فقدوا العذرا
ومع كونهم مِثْلَ البُرُسْتَنْتِ فارقوا ... أئمتَهم كلَّ غدا عالِماً خَبْرا
فقد قلدوا أهل المَجامع منهُمُ ... بمؤتمرٍ للبحث في الدين في مِصْرا
به سَنَنَ القوم النصارى تتبَّعوا ... على الإثْرِ لم يَعْدُوا ذِراعاً ولا شِبْرا
فلِلّه دَرُّ المصطفَى سيّدِ الوَرَى ... فقد طابقَتْ أحكامُه كلُّها الخُبْرا
أمِنْ بعدِ قول الله: أكملتُ دِينَكُمْ ... يريدون في الإسلام أن يُحدِثوا أمْرا؟

ومن العلماء المعاصرين الذين تنبهوا لخطر محمد عبده وفساد فكره مصطفى افندي صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية. وهو يمتاز إلى جانب ثقافته الفقهية الإسلامية بمعرفة دقيقة بخفايا السياسة، وذلك بحكم عضويته في المجلس النيابي (المبعوثان) منذ سنة ١٩٠٨ وعضويته في مجلس الشيوخ بعد ذلك، مع نيابته عن (الصدر الأعظم) في رياسة الوزراء أثناء غيابه في أوروبا للمفاوضة، بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى.

يقول شيخ الإسلام مصطفى افندي صبري في كتابه الكبير «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»[1] .

«أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده ، فخلاصتها أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين ، فقرّب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ، ولم يقرّب اللادينيين إلى الدين خطوة، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني ، كما أنه هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر».

«فالشيخ بدلاً من أن يتغلب على مناظره[2] ويهزم جيوش المتفرنجين الكامنين وراءه ، هزم جيش علماء الدين الذي هو جيشه هو نفسه ، بطول ما رماهم به من وصمة الجمود ، وبفضل ذلك حاز مكانة عظيمة عند المتفرنجين طبعاً، وعند المنهزمين تبعاً ».

«وكان من مضار الشيخ بالإسلام وعلمائه الناشئين بعده أن حَمَلَة الأقلام بمصر، المنحرفين عن الثقافة الإسلامية، لما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة ـ التي انتقدتُها في هذاالكتاب ـ أوجدوا له من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه في أذن الشرق الإسلامي ـ ولا شك في تأييد القوة الماسونية له ـ كان ذلك حثًّا للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم ، على نيل ما أرادوه بواسطة الشذوذ على الرأي، والتزلف إلى الكتّاب المتفرنجين ، بل الانتماء إلى الماسونية ـ ج ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤».

---

(١) راجع تعريفاً لمصطفى صبري ومؤلفاته في « الاتجاهات الوطنية » ج٢ ص ٧٥ ـ ٨٥ ، ٣٤٣ ـ ٣٤٨ .

(٢) المقصود هو فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة العثمانية » في المناظرة التي جرت بينه وبين الشيخ محمد عبده في أول هذا القرن ، في ست مقالات ، تبادلها الطرفان ، وجمعها فرح أنطون بعد ذلك في باب الردود من كتابه « فلسفة ابن رشد » . وقد ثارت المناقشة بمناسبة مقال نشره فرح أنطون في مجلته عن « فلسفة ابن رشد » وأشار فيه إلى أن المسيحية أكثر تسامحاً مع الفلسفة من الإسلام .

ويقول مصطفى صبري في موضع آخر من كتابه[1]:

«فلعل الشيخ محمد عبده وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا أن يلعبا في الإسلام دور لوثر وكلفن زعيمي البروتستانت في المسيحية، فلم يتسنَّ لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنَّع بالنهوض والتجديد».

ويقول في هامش هذه الصفحة:

«يدل على رجحان إستانبول بعلماء دينها الراسخين في مبادئهم العلمية أمران: الأول أن الشيخ جمال الدين الأفغاني لم يستطع أن يسحرهم برسالته التي أنجحها في مصر فخرج من بين علمائها من يشدّ أزره، ويشترك في أمره، ثم يلعب دوراً في هدم الأزهر بزحزحته عن نهجه القديم القويم، والأمر الثاني: وباء الماسونية لم يجد بيئة صالحة للانتشار بين رجال الدين في الأستانة كما وجدها بين أقطاب الأزهر، وهذا على الرغم من أن مصر كانت في الماضي البعيد مركزاً كبيراً للعلوم الإسلامية قبل دخول الإسلام في إستانبول.»

وهذا الحديث عن الدور الذي قام به محمد عبده ومدرسته في التقريب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية وقيمها يعود بنا إلى الحديث عن التيار الثاني الذي أشرت إليه من قبلُ، والذي كان ساسة الغرب يرسمون خططه، ويسهرون على تنفيذها، وهي الخطط التي مرَّ بنا الإشارة إليها في كلام كرومر وبلنت، والتي اعتمدت جهود الاستعمار فيها على دراسات علمية دقيقة قام بها المستشرقون.

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (٤ أجزاء) جـ ١ ص ٤٤٢. وقد يسبق النبهاني هذه الفكرة في «العقود اللؤلؤية» ص ٤٠٠.